

الفصل السادس

صندوق الدنيا

إجتهادات ومتابعات

أتمنى أن تمثل قراءة هذا الفصل الكبير ، بقسميه :
الإجتهادات والمتابعات ، متعة للقارئ ، تماثل متعة كتابته . لقد
كتب مقالاته المختلفة في مناسبات عديدة عبر السنوات ٨٥ -
٩٢ ، بعضها كمحاولة « لنمذجة » علاقة معينة باستخدام فكرة
علمية بسيطة ، والبعض الآخر متابعة لحدث أو حديث يتعلقان
بالعلم . والتقسيم هنا غير قطعي ، فبعض الإجتهادات قد تستند
إلى متابعة ما ، وبعض المتابعات لا يخلو التعليق عليها - كما أرجو -
من الاجتهاد . والمهم ، أن الفصل يحقق بأكبر درجة أتصورها
عدم نمطية الكتاب ، ويؤكد البعد الثقافي للعلم ، مع الإلتزام
المبدئي المحبوب (وليست كل الإلتزامات محبوبة ، حتى ولو
كانت مبدئية) بالتوجه المستقبلي . ولطبيعة بعض الموضوعات ،
(وطبيعة البشر) ، قد يضبطني القارئ في بعض المواضع متلبساً
بالانفعال ، لكنه والحمد لله يخلو تماماً من الإفتعال ، ولا يعدم
التبرير الموضوعي . . . أو أحسبه كذلك ، وإلا لما أوردته في
كتاب عن العلم !!!

أولاً : الإجهادات

١. تقابل الثنائيات فى ثقافتنا المعاصرة:

وجهة نظر بيولوجية !!

٢. العرب والروبوت الصهيونى

٣. ذاكرة المستقبل

٤. فانتازيا مستقبلية عن « الغباء » الاصطناعى

و «فيروس » الهيمنة

٥. تكنولوجيا الفكر والفعل

٦. نحو رؤية أولية لفيزيكا الوعي :

لكل فكر ... رد فكر !!!

٧. أكاديموس ... أوزون المستقبل :

أوهام العزلة ومخاطر الإحتراق !!!

٨. حول الترجمة العلمية لمصطلح جلوبالزم :

كوكبية ... ليه ؟!!!!

٩. أزمة الهوية فى مشروعنا المستقبلى

١٠. تغيير العالم

١ - تقابل الثنائيات في ثقافتنا المعاصرة :

وجهة نظر .. بيولوجية !!

لا بد للمهتمين بالثقافة العربية الإسلامية ان يستوقفهم القدر المتعل من التناقض الذى أثير حول ثنائيات لا تحتمله ، لأنها بطبيعتها يجب أن تكون متكاملة لا متعارضة . الا أن الكثير من العوامل الخارجية والداخلية ، والتي لا يستبعد بالنسبة لبعضها على الأقل سوء النية ، لعبت دوراً كبيراً فى تعظيم هذا التعارض . أشهر الثنائيات المذكورة ثلاث : القطرية والقومية - العروبة والإسلام - الأصالة والمعاصرة ، وللثنائية الأخيرة تنويعاتها الخاصة كالسلفية والحداثة أو النقل والاجتهاد أو الشرع والعقل ، وهى فى الواقع أكثر الثنائيات فعالية وحساسية فى وقتنا الحاضر ، بل انها أثرت وتؤثر بقدر كبير على ما قد يدور من نقاش حول الثنائيات الأخرى ، التى حدث بالنسبة لها تقدم ملموس أظنه فى الاتجاه السليم .

وجوهر ثنائية الأصالة والمعاصرة بتنويعاتها المختلفة هو الثبات والتغير ، وهل تؤدى طبيعة العلاقة الجدلية بينهما إلى وفاق وتكامل ، أو عداوة وتعارض ؟ ولو من وجهة نظرى فى هذه النقطة بالذات . استأذنكم فى أن اصطحبكم فى رحلة قصيرة إلى عالم الكائنات الحية ، لنعرف كيف يفسر لنا

علم البيولوجيا الذى يدرسها ، ظاهرة الثبات والتغير فى هذه الكائنات لنرى بعد ذلك إلى أى مدى ينطبق هذا التفسير على عالم الفكر ، باعتباره أهم أنشطة سيد الكائنات .

ليس هنالك ما هو أصح من وصف الأفكار بأنها حية . يسهل اثبات ذلك سواء على مستوى الرياضة الذهنية أو الحقيقة العلمية . أما على مستوى الرياضة الذهنية فنستطيع أن نستغرق طويلاً فى المقابلة بين أحوال الكائنات والأفكار . ألا تمارس الأفكار دورة النمو من الميلاد إلى الشيخوخة ؟ ألا يترك الخصب منها خصائصه فى أجيال الأفكار التى تليه ؟ ألا تبدى بعض الأفكار كفكرة التطور ذكورة واضحة فى تلقيح غيرها ؟ ألا تنهار الأفكار ؟ ألا تمرض بعض الأفكار بعضها الآخر ؟ ألم تسقط الوطنية أحياناً فريسة العنصرية ؟ ألم تتسرطن الأخيرة على مختلف الأشكال من نازية وفاشية وصهيونية .

نترك القارئ يأتى - ان شاء - بالعديد من الأمثلة الأخرى ، ولنعود إلى مناقشة مدى قدرة الأفكار على البقاء والانتقال من جيل إلى آخر . . هذا ما يسمى فى الكائنات الحية بقوة المحافظة . التى تتم عن طريق توازن محكم بين الثبات والتغير ، حيث يلعبان دور وجهى العملة فى هذه العملية الحيوية الهامة .

وسؤالنا المحدد : هل ينطبق ذلك على الفكر ؟ وهل هنالك تفسير علمى لذلك ؟

ان شفرة امكانياتنا الوراثية المتضمنة فى خلايانا ، لا تحتوى المعلومات

الخاصة بامكانياتنا التكوينية والجسدية فحسب ، ولكنها تمتد لتشمل امكانياتنا الفسيولوجية والفكرية والسلوكية . ويتم تجسيد هذه الامكانيات في تعبيرات مظهرية للأفراد خلال عملية ترجمة معقدة ، من أوضح خصائصها تفاعل الامكانيات الشفوية المذكورة مع الوسط المحيط . وتتميز أنواع الكائنات الحية بقوة المحافظة التي تعنى انتاج أفراد من نفس النوع عند التناسل لكن هذه الأفراد التابعة للنوع الواحد يتباين كل منها عن الآخر ، في خصائصه وامكانياته .

فالثبات يتمثل في الخصائص العامة للنوع ، والتغير يتمثل في التباين الواسع في خصائص وقدرات الأفراد التابعة له ، والمحقق علمياً أنه كلما ازداد معدل التغير داخل الاطار الذى لا يخل بثبات النوع ، أو قوة محافظته كلما ازدادت قدرة أفراد هذا النوع على التكيف والمواءمة تحت الظروف البيئية المختلفة .

ولكن ما هى الميكانيكيات التى يحدث بها الثبات والتغير المتوازنين في الكائنات الحية ؟ وكيف ينطبق ذلك على عالم الفكر ؟ هنالك نوعان من الميكانيكيات حتمية الحدوث : النوع الأول المؤدى إلى الثبات يتضمن : عمليات التكرار الدقيق للامكانيات الشفوية التى تنتقل من جيل إلى آخر عند التكاثر ، كما يتضمن عمليات الإصلاح أو التصحيح التى تحاول ملاحقة ما قد يطرأ على هذه الشفرة من ضرر أو تلف ، أما النوع الثانى المؤدى إلى التغير فيتضمن بدوره : ما يتم من عمليات تبادل وتوافق بين شفرات الأب والأم عند التزاوج ، مما يجعل مظاهر النسل توليفات متعددة من امكانيات

الأبوين ، وكذلك يتضمن التغير حدوث الطفرات في بعض المكونات الشفرية . أغلب هذه الطفرات ضار كاسر للتوازن في التركيب الوراثي للفرد تقتله وتضيع معه ، والبعض النادر مفيد قد يضيف إليه ميزة تنقصه أو أخرى تزيد من كفاءته وبالتالي يسمح لها بالاستمرار والانتشار في نسل الأفراد الحاملة لها . وأخيراً من ميكانيكيات التغير انتقال عنصر شفرى من وسطه إلى وسط مخالف ، محدثاً تغيراً في محيطه الجديد ، أو في الوسط الذى فقده . يحدث ذلك بصور مختلفة وعلى مختلف المستويات من الخلايا إلى العشائر ، ودون حاجة إلى تفاصيل ليس هذا مكانها دعونا نطبق ذلك على عالم الأفكار ، كهدف رئيسى للمثال الخالى .

ألا ترون معنى أن هذا هو ما يحدث للأفكار بالضبط ؟ انها تتكرر بالنقل الأمين من جيل إلى آخر ، ويصحح المصلحون ما قد يعترى بعضها من فهم خاطئ فيردونه إلى الأصل السليم . . هذا عن الثبات ، أما عن التغير فنجد أن التبادل الفكرى المفتوح يؤدى إلى تبادل وتوافق عديدة في عقول الأفراد ، كما تظهر الأفكار الطفرية الثورية المفيدة بين الحين والآخر ويسمح لها بالاستمرار، بينما ترفض الأفكار الطفرية الانقلابية بسبب ما تحدثه من ضرر وخلل . وأخيراً يؤدى انتقال فكرة ما إلى وسط فكرى مختلف إلى تغير واضح في هذا الوسط يتناسب حجمه وتأثيره مع قوة الفكر المتقلبة . كما تؤدي هجرة بعض الأفكار أو هجرها إلى هدر في البنيان الفكرى الذى كان يحتويها يتوقف أيضاً على مدى فائدتها .

ان هذا التوافق الكبير طبيعى ومفسر فبنينا الفكرى مثله في ذلك مثل

بنياننا الجسدى ، هو بصورة أو بأخرى محصلة تفاعل امكانياتنا الشفوية مع البيئة المحيطة خلال سلسلة طويلة وشديدة التعقيد من عمليات الترجمة الحية ، أو بالأصح المميّزة بين الحى وغير الحى . لذلك علينا إذا ما أردنا الإبقاء على قوة المحافظة والاستمرارية لحضارتنا العربية الإسلامية أن نحدد بموضوعية وعقلانية عناصر الثبات الأساسية ، وأن نسمح بأكبر قدر من عوامل التغير الصحية لنضمن لها الاستمرارية المستقبلية ، ونمدها بأكبر أسلحة التكيف والمواءمة .

علينا ان ننصح بحيدة علمية كاملة هؤلاء المتطرفين في طلب الثبات أو التغير عند مناقشة قضايا الأصالة والمعاصرة أن يضعوا الثبات والتغير المتوازنين كوجهى عملة لقوة المحافظة والاستمرارية . ان أغماض عيوننا عن هذه الحقائق الأساسية لا يمكن أن يؤدى الا إلى بنية فكرية مشوهة تضعف الحضارات وتهلكها . لأنها تفقد عناصرها الجيدة بالانسحاق والتسرب ، وتسمح للعناصر الرديئة - وأغلبها وافد ومدسوس - بالطغيان والتسرطن* .

* أظن أن فكرة هذا المقال ، الذى نشر فى الأهرام عام ١٩٨٦ ، تبدو معاصرة تماما . لقد فضلت أن أذكر هذه الملاحظة فى آخره . حتى يكون « الحكم بعد القراءة » !!!

٢ - العرب والروبوت الصهيوني*

أضافت السنوات الأخيرة إلى أوصاف الإنسان التي أطلقت لتعبر عن تميز حيوانيته وصفاً جديداً يضاف إلى القائمة الطويلة المعروفة ، فبالإضافة إلى كونه الحيوان الناطق والعاقل والضاحك . . إلى آخر هذه الأوصاف المشهورة ، يمكن أن يوصف أيضاً بأنه الحيوان التكنرونى .

ومصطلح « تكنرونى » مشتق من كلمتى التكنولوجيا والالكترونيات ، حيث تمثل الأخيرة أكثر مجالات التقدم التكنولوجى تأثيراً فى إنسان اليوم . لهذا أطلق سبجنىو برجنسكى فى بداية السبعينيات على هذه المرحلة من مراحل التاريخ البشرى إسم « العصر التكنرونى » . وكأى سمة رئيسية من سمات أى عصر ، فهى تنعكس على كل أوجه النشاط البشرى فى عالم اليوم ، بما فى ذلك

« نشر هذا المقال فى مجلة « الیقظة العربية » عام ١٩٨٥ ، ولقد فصلت الإبقاء عليه كما هو لسببين : أولاً ؛ أنه مثال على « النمذجة » ، والثانى ؛ أن « الدليل القطعى » على تغير العلاقة المشروحة فيه لم يظهر بعد . ومن يدرى ، لعل « اللوى العربى » بنجح فى زرع « فيروس » فى برنامج العلاقة بين أمريكا وإسرائيل ، يلغى التحيز والكيل بمكيالين . وعموماً ، فمثل هذه الفيروسات ظهرت بعد كتابة المقال بسنوات !!!

ما يفرضه هذ النشاط من مشكلات ، بل تنعكس أيضاً وبشدة على طريقة مواجهة وفهم هذه المشكلات وعلى الإمكانيات الواقعية للحل .

فى ضوء المقدمة السابقة نود أن نستعرض أزمة الإنسان العربى فى الوقت الراهن ، والتي تشكلت مراحلها الأخيرة مع بدايات العصر التكنترونى ، وسار تعقدها فى خط مواز لتقدمه . ولعل من الأمور القليلة جداً التى يتفق حولها العرب أن لب الأزمة يتمثل فى الغفلة التى أدت إلى ضياع فلسطين ، وفى الصعوبة المتزايدة أمام محاولات الإستعادة الكاملة للحق السليب أو الوصول إلى أية صيغة ملائمة للسلام العادل . لعلهم يتفقون أيضاً أن سبب الصعوبة المتزايدة هو الدعم الصهيونى الأمريكى لوجود إسرائيل وتفوقها ، وأن الطابع التكنترونى لهذا الدعم لا يخفى على أحد . هذا الطابع كان وراء إنقاذ إسرائيل من هزيمة أكبر فى حرب ٧٣ ، كما كان وراء دقة هجماتها على المفاعل العراقى وعلى مقر منظمة التحرير الفلسطينية فى تونس ، بل قيل أيضاً أنه كان وراء تحديد مكان الطائرة المدنية المصرية فى سيناريو أردأ أفلام راعى البقر العجوز هذا كله معروف ، ويهمنى هنا أن نسأل عن تفسير لهذا الدعم الذى تجاوز الحدود المعقولة فى العلاقات الدولية وصار نسيجاً وحده ، وأن نتعرف على طبيعته فى ضوء المعطيات الفكرية للعصر التكنترونى الذى نتعيش معه ، ولا أقول نعيش فيه فهذه قصة أخرى .

بادئ ذى بدء أريد أن أؤكد قصور التصورات البسيطة للعلاقة بين الصهيونية وأمريكا . فمع احترامى للتفسيرات المعتادة التى تتداول فيها كلمات كالسيطرة والتأثير والتلازم ، أرى أن الأمر أخطر وأعقد من هذا بكثير . حقيقة

أن العلاقة مرت بهذه المرحلة . وقد كان ذلك وارداً أيضاً بالنسبة لأوروبا ، لكنها قد تجاوزتها بالنسبة لأمريكا بوجه خاص . فالحركة الصهيونية قد نشأت في العصر الصناعي السابق للعصر التكنونى الحالى ، وتمكنت من التحكم في كثير من مقدراته وابتزاز الوعد بوطن قومى من نجومه البارزين ، وانتهى هذا العصر بقيادة أمريكا للعالم الغربى وبنقيادها للصهيونية العالمية . وقد كانت السيطرة في العصر الصناعي من النوع الذى يمكن مواجهته إذا أراد المتضرر ذلك ، وأدت في كثير من الأحيان إلى شعور دفين بالكراهية إستغلته الصهيونية تماماً في دعايتها وخططها الابتزازية . ومنذ اتضح أن الضحية التى سيكرس بها الوجود الدولى للصهيونية ستكون فلسطين ، ظهر جلياً تخلف العرب عن ركب حضارة هذا العصر الذى كانت الصهيونية لصيقة دائماً بمقدمته ، مما سهل تداعى الأمور من سىء إلى أسوأ حتى تم هتك العرض العربى بضياغ فلسطين .

جاءت إسرائيل كإبنة شرعية للصهيونية ، متعطشة لأسباب القوة التى يوفرها التقدم العلمى والتكنولوجى ، مستميتة في الحفاظ على علاقتها العضوية بأمريكا لأنها على قمة هذا التقدم لذلك فقد كانت إسرائيل أوائل من إستفاد من هذا العصر . . . العصر التكنونى ، والفضل في ذلك يعود بالطبع إلى الصهيونية العالمية وما فعلته بأمريكا ، أو جمهورية التكنولوجيا كما أسماها دانييل بورستين ، وهى تسمية قد يوافقه عليها الجميع ، دون التزام بتحليلاته المستقبلية التى لا مجال لذكرها في هذا المقال . والسؤال المحورى الذى استلزم هذا السرد الطويل يمكن أن يوضع بالشكل التالى : هل انعكس

التقدم العلمى المذهل على نوعية العلاقة بين الصهيونية وأمريكا ، أم أن نموذج السيطرة البسيط المميز للعصر الصناعى ما زال صالحاً لتوصيف هذه العلاقة التى يهمننا فهمها إلى أقصى حد ؟

لا شك أن طبيعة التقدم العلمى والتكنولوجى فى كل عصر تؤثر بشكل عميق فى فكره السياسى وتأثير به . فالعلم كما يرى ألفين توفلر قد مرَّ بثلاث موجات رئيسية للتقدم : موجة العصر الزراعى ، وموجة الثورة الصناعية ، أما الموجة الثالثة التى نعيشها فهى ذات طابع تكترونى كما أسلفنا . أفرز العصر الزراعى المجتمعات القبلية الصغيرة ، وعندما زاد التحكم فى أدوات الانتاج حاولت المجتمعات الخلاص السياسى بالديموقراطية ونقابات العمال والثورات ، وفتحت زيادة التحكم فى الآلات والمعدات العسكرية الشهية الاستعمارية ، وواجهتها ثورات التحرر الوطنى . وإذا كانت قوة سياسية ذات ديناميكية عالية كالصهيونية العالمية قد تلاءمت مع الطبيعة التحكمية للعصر الصناعى ، وذلك بالتلازم مع القوى الواعدة وممارسة كل أوجه التأثير والسيطرة عليها ، فإنها لم تكن أقل كفاءة فى إيجاد صيغة مناسبة للاستفادة من العصر التكترونى فى سبيل إيجاد نموذج سياسى أفضل لضمان قوة وتفوق إسرائيل ، وهاكم البيان .

فى ظل مختلف أشكال التكنولوجيا المتقدمة والالكترونيات ظهرت إمكانيات كثيرة مثل التحكم الذاتى والتحكم عن بعد والاستشعار والذاكرة الصناعية والاسترجاع وما إلى ذلك ، مما مكن الانسان من برمجة الآلات للقيام بوظائف متعددة وبكفاءة فائقة ، وهذا ما يسمى بالانسان الآلى أو الروبوتات .

لقد استطاعت الصهيونية العالمية - وانتبهوا أيها السادة - من تطوير نموذج علاقة السيطرة المباشرة القابلة للكسر إلى علاقة البرمجة السياسية المتكاملة ، بما يشبه ما تم في الروبوتات . وللأسف الشديد يجب أن نعتزف بنجاح الصهيونية في برمجة الفكر السياسى الأمريكى ، وذلك بالتغلغل فى كل مجالات الاقتصاد والإعلان والفن والفكر والعلم والتكنولوجيا ، وصولاً إلى تحويل هذا الكيان ذو الأنبياء والمخالب النووية إلى روبوت فظيع مسخر لمصالحها . لقد كان هذا هو أكبر انتصار حققته الحركة الصهيونية لصالح إسرائيل ، وأكبر دليل على تخلف العقلية السياسية العربية عن العصر ، فقد حدث هذا الانتصار إبان إزدهار البترول العربى ، وفى ظل أفكار الوحدة ، بينما كان الاستخدام الجيد لأى من هذين السلاحين كفىل بتحجيم الانتصار المذكور ، أو الإقلال من آثاره وتداعياتها .

ومن حق القارئ أن يسأل عن الفرق بين البرمجة وبين ما ذكرناه سابقاً عن علاقات السيطرة والتأثير ، وإلا فإننا لا نكون قد أتينا بجديد ؛ تفسير علاقة أمريكا بالصهيونية وربيتها . لذلك فإننى أدعوه أن يستعرض معى قوانين الروبوتات التى ذكرها إسحق أزيمواف منذ أكثر من أربعين عاماً . هذه القوانين قد وضعت كنوع من الخيال العلمى ، وقد إنطبقت على نماذج الروبوتات التى صنعت فيما بعد ، ذلك أنها كما ذكر أزيمواف نفسه قوانين الآلات ، حتى وإن كانت مبرمجة . وإذا كان أزيمواف قد عمم فى قوانينه علاقة الروبوت بالإنسان ، فإننا هنا - من منطلق الوضع الخاص الذى نناقشه - نخصصها بعلاقة الروبوت بصانعه ، لأن الصانع أو الصهيونية

العالمية في هذه الحالة ، قد برمج الروبوت الأمريكي ضد مصالح إنسان آخر ، هو الإنسان العربي . وعلى ذلك فقوانين الروبوتات هي :

- ١ - يجب ألا يؤدي الروبوت صانعه ، أو أن يسمح بإيذائه .
- ٢ - يجب أن يطيع الروبوت أوامر صانعه ، الا إذا تعارضت هذه الأوامر مع القانون الأول .
- ٣ - يجب على الروبوت أن يحمي وجوده ، الا إذا تعارض ذلك مع القوانين السابقين .

إن الفحص المدقق لهذه القوانين يوضح الفرق النوعي بين نموذج السيطرة ونموذج البرمجة . ففي حالة السيطرة يمكن يتقبل الطرف الخاضع نقد الآخرين وأن يثور على من أخضعه ، أما البرمجة فتصير التعبير الطبيعي المنبعث من داخل من تمت برمجته ، والموجه بلا احتمالات للتعديل نحو هدف معين ، حتى ولو كان فيه ضرره ما دام هذا الهدف في صالح من برمجه .

أظن أن علينا بناء على ما سبق توضيحه أن نراجع مواقف أمريكا المنحازة دوماً لإسرائيل ، والمتعارضة كثيراً حتى مع مصالحها ، لتؤكد أنها تلعب دور الروبوت الصهيوني باخلاص لم يسبق له مثيل ، ودون نظر لمبادئها المعلنة عن رفض العنصرية ومناصرة الحرية وحقوق الشعوب ، وغير ذلك من مساحيق التجميل السياسي التي تخفي الوجه القبيح للحقيقة . علينا أيضاً أن نواجه ضرورة إعادة حساباتنا مع أمريكا بناء على الاقتناع بأنها كروبوت مبرمج لن تخرج ردود أفعالها عن البرنامج الموضوع لها ، والموجه لصالح إسرائيل ، دون أي

أعتبار لحقوقنا المشروعة . وسندرك حينئذ عدم جدوى فكرة التحييد التي كانت جائزة في ظل نموذج السيطرة أو التأثير القوي ، ولكنها غير واردة في ظل التعامل مع برنامج لا يشكل التحييد أحد ردود الأفعال المبرجة فيه . وسيؤدي الانحياز الكامل في برنامج هذا الروبوت الصهيوني إلى عقبات متتالية أمام اعتباره شريكاً كاملاً منفصلاً عن إسرائيل في مسيرة السلام . أما إستمرار أى شكل من أشكال التبعية العربية لمخططاته ، فسيمثل شذوذاً يعرض الجميع للإيدز السياسى الشديد الفتك ، فليس هنالك ما هو أضر من إنبهار مناعة الأمم أمام محاولات الإحتراق العدوانية لكيانها الحضارى ، فما بالك إذا تم ذلك عن رضا أو غفلة أو عنهما معاً ؟

إننى لا أشك لحظة واحدة في أن المنطلق الصحيح الوحيد أن للأزمة طرفان :
الطرف الأول : هو العرب الذين يعانون من مهانة عدم القدرة على لعب دور الطرف الواحد المتحد وبالتالي يفقدون كل فعالية ممكنة .

والثانى : هو المعقد المركب من إسرائيل وروبوتها الأمريكى العملاق ببرنامجه الصهيونى الصرف ، وقد نجحاً تماماً في لعب دور الطرف الواحد سياسياً وتكنولوجياً بصورة تدعو لحسرة المقارنة . والخلاصة التى يجب أن نؤكد عليها هنا أن تعامل العرب مع هذا الطرف حتمى ، لكن الفهم الواضح لطبيعته يعد أكثر حتمية للوصول إلى حسابات واقعية لنتائج هذا التعامل . وإذا كان هنالك ما يجب أن نحذر منه ، وأن ندعو الله ألا يكون قد حدث ، هو خشية أن تكون الفرقة العربية المريرة نتيجة لنجاح صهيونى آخر في برمجة العقل العربى .

٣ - ذاكرة المستقبل

لا يختلف

أحد على أن التعامل مع المستقبل بكفاءة يستدعى الرؤية الشاملة المحيطة بكل العوامل الفاعلة في تشكيله ، دون استغراق في أمور جزئية أو هامشية . لكن بعضنا يقفز في سبيل هذا الهدف المشروع بشكل غير محسوب ، يجعله يتجاوز الكثير من « المعوقات المستقبلية » في اللحظة الحاضرة ، متناسياً أن المستقبل يبدأ الآن ، وأن الحاضر بكل ما له وما عليه ، أو بمعنى أصح بكل ما لنا وما علينا ، كان مستقبل الماضى الذى عشناه فى الأمس القريب أو البعيد . ولا نعنى بذلك طبعاً تبنى مدخل خطى تراكمى ، بل مدخل تركيبى مبنى على إدراك للتفاعل الدائم بين الإنسان والزمان والمكان « التاريخ والجغرافيا » ، لا تتساوى فيه لحظات هذا التفاعل أو مردوداتها . هذا المدخل يجتهد فى التفرقة بين العوامل والاتجاهات الصغرى والكبرى ، الماضية والمستقبلية ، بل والأهم من ذلك العاجلة والآجلة . والسيناريوهات المستقبلية ، التى يمكن بناؤها على أساس مردودات التفاعلات المذكورة ، لا تتضمن عمليات تراكمية بسيطة ، بل تضع احتمالات التشجيع والإعاقة والتحفيز والتثييط ، وأخيراً ، لعلها تستوعب دروس قصور الدراسات المستقبلية السابقة ، التى منعتها من مساهمة إيقاع التحولات العظمى التى شهدتها العالم فى السنوات الأخيرة بشكل كاف ،

وذلك بأن تضيف إلى اليات الاستشراف حسابات التنبؤ باللحظات الحرجة ،
التي تؤدي إلى تغيرات كيفية حادة . وهي التغيرات التي تؤدي للقصور
المذكور، بل وأدت فعلاً بشكل أو بآخر ، إلى عدم توقعها أصلاً ، أو على
الأقل توقع حدوثها في فترات زمنية أطول بكثير ، ذلك أن التوقع الأصح لهذه
الحالات يقلل كثيراً من الكلفة البشرية للتغيير . وأمامنا أمثلة كثيرة وقريبة
زمانياً ومكانياً لحدوث ذلك « تغيرات الكتلة الشرقية - حرب الخليج الثانية » .
حتى الاضطرابات العنصرية في الولايات المتحدة تؤكد هذا القصور .

ولكن ، ما الذي يدعوننا إلى هذا الكلام ؟ وما علاقة الأمر كله بما أسميناه «
ذاكرة المستقبل » ؟ إن الدافع المباشر يتمثل في الرغبة في التحذير من الارتكان
إلى « صورة المستقبل » التي يقدمها غيرنا ، دون مشاركة منا في وضع ملامحها ،
هذه المشاركة لن تتم إذا لم نبدأها فوراً باستخدام كل معطيات الحاضر ،
وباستخدام المدخل التركيبي الذي شرحناه من قبل . فمن الأخطاء الشائعة
مثلاً أن نهتمش البترول العربي وأهميته ، ذاكرين أن البدائل على وشك
الوصول ، وهي التي ستشارك بفعالية في صياغة صوة المستقبل المذكورة . لقد
وصل الأمر أحياناً إلى المراهنة على الاندماج النووي ، رغم أن التطبيق
التكنولوجي الواسع في حالة نجاحه العلمي بشكل مؤكد وكاف لبدء بحوث
التطوير الخاصة باستخدامه ، يحتاج مدة لا تحيل البترول على المعاش بسرعة
تخرجه من حساباتنا المستقبلية . إن كاتب هذه السطور شديد التقدير
للتكنولوجيا المتقدمة ، وهو وثيق الصلة بإحداها ، أو بمعنى أصح بأحدثها
تطبيقاً ، لكن ذلك لا يعنى أن يصاب المرء بجنون التكنولوجيا « تكنومانيا » ،

ويقلل في سبيل ذلك أحد المقومات الاستراتيجية لمشاركته المستقبلية . ومن الأخطاء الأخرى ، التي ترتكن أيضاً على شراء صورة جاهزة للمستقبل ، الحديث المبالغ فيه عن بدء عصر الإنسان والسلام والإيمان ، وعن التأكد « الأوتوماتيكي » من الوصول إلى حلول عادلة لكل المشكلات ، وما علينا إلا أن نسارع بركوب « سفينة نوح » الليبرالية الغربية ، والالتزام بأوامر ربانها المهيمن . وأؤكد أنني لا أريد أن أتوقف كثيراً أمام أحداث التفرقة العنصرية في أمريكا ، وما أظهرته استبيانات الرأي من تأكيد « الأغلبية » الملونة على شعورها بافتقار العدالة ، في بلد تعلن أنها ناظر « مدرسة الديمقراطية النموذجية المشتركة » ، وأنها ستعلن الحرب على كل من يهدر حقوق الإنسان . كل ما يعيننا هنا كشف الصورة العبيطة « ولا أقول الساذجة فقط » للمستقبل ، رغم ما يقال عن مواجهة الإسلام « مع استخدام كلمة التطرف للتخفيف أحياناً » كأهم أخطار التسعينات . إن المشاركة التي أقصدها ، وأرجو أن تبدأ فوراً ، تعنى مقابلة ذلك بالحوار ، وباستخدام كل « أوراق الحاضر » في تكريس الاتجاه نحو الاعتماد المتبادل والتواجد المشترك ، الذي يحترم التباين الثقافي والاجتماعي للشعوب ، ويعطى للشرعية الدولية مضمونها الحقيقي . وعلى نقيض من ذلك ، فإن آخر صورة أود أن أذكرها في هذا العرض ، هي التي تعتمد على كل الإحباطات وتلغى كل الإمكانيات ، فتقدم ما يشبه النيجاتيف « عفريت الصورة كما نسميه بالعامية » للشبه الممثل في تجاهل إمكانيات المشاركة في المدى القصير في صناعة المستقبل . وذكر المدى القصير هو الذي يجعلنا في السطور التالية نتقدم بنموذج « ذاكرة المستقبل » .

في دراسات الذاكرة تتم التفرقة بين نوعين ، اجتهد الباحثون في محاولة التعرف على كيفية تحول أولاهما إلى الأخرى ، وهما ذاكرة المدى القصير وذاكرة المدى الطويل . أما ذاكرة المدى القصير فتتعلق بالمعلومات تحت الاستخدام in use كرقم الهاتف أثناء طلبه . وبالإضافة إلى تناقص القدرة على تخزينها ، فإن بعض الأمراض والصدمات تؤثر على استرجاعها . أما ذاكرة المدى الطويل ، فمع كفاءة تخزينها ، يزيد تنظيمها الجيد من القدرة على استرجاعها . ويعبر النسيان أو صعوبة التذكر ، رغم التأكد من معرفة المعلومات التي تبدو كما نقول « على طرف لساننا » عن فشل الاسترجاع ، بأكثر مما يعبر عن تلاشي المعلومات . وأحياناً ما يتذكر المرء ما كان يتوقع حدوثه ، بدلاً عما حدث فعلاً . بهذه المعلومات شديدة التبسيط والتواضع عن الذاكرة ، وجدتنى أبحث عن ذاكرة للمستقبل ، تمتلك بنفس القدر من الأهمية نوعى الذاكرة السابقة ، وتستحق في عملياتنا الاستشرافية أن نتفهم آليات تحول أولاهما إلى الأخرى . إننا إذ نستدعى إمكانيات المدى القصير ، فكأننا نتذكر رقم هاتف المستقبل ، الذى لن نتصل به إذا لم نتذكره .

أما مخزوننا الحضارى بكل ما فيه من عناصر فاعلة ، وبالنظر إليه كجزء عضوى من المخزون العام للحضارة البشرية ، فهو من أهم أرصدتنا فى ذاكرة المدى الطويل المستقبلية . يجب ألا تجعلنا الصدمات نفشل فى الاتصال بالمستقبل فوراً ، وألا تجعلنا الإحباطات نتصور تلاشى قيمة مخزوننا الحضارى فى تأكيد قدرتنا على العطاء بعيد المدى للمستقبل . إننا هنا ندعو إلى « متصل زمنى » ، يجعل للمستقبل ذاكرته ، التى تستقى معلوماتها من كل اللحظات

البشرية المضيئة لتحديد ملامحه ، ولتنير طريق الوصول إلى أفضل بدائله . وهذا هو الفارق الأساسي بين المستقبل وبين الماضي والحاضر ، فبتحقيقهما انعدم الاختيار بالنسبة لهما ، حتى وإن تخيل البعض حدوث ما توقعه أو تمناه . أما المستقبل فيمتلئ بفرص الاختيار وبدائله ، وصفحة ذاكرته ما زالت بيضاء من غير سوء ، والكرة كما كانت دائماً في ملعب الإنسان ، فهل ينجح خليفة الله في الأرض في حمل الأمانة التي ارتضى بها !!

٤ - فانتازيا مستقبلية عن :

« الغباء » الاصطناعي و « فيروس » الهيمنة !!!

لامفر من أن نبدأ حديثنا هذا ببعض العبارات النمطية ، التى ما أن يذكر فيها كلمة الا ويسهل توقع ما هى الكلمة التالية . عباراتنا النمطية تقول : « نحن نعيش فى عصر التغير (المتسارع) ، الذى لعبت فيه الدور الأكبر ثورة (المعلومات) . هذه الثورة لم تكن ممكنة ، لو لم يصنع الإنسان الأجيال المتتالية من (الكمبيوتر) . انتهت العبارات النمطية ، أو هكذا أرجو !!!

ولنبدأ حديثنا من آخر كلماتها : الكمبيوتر . فى بدايات ظهور هذا الاختراع الهام ، سمى البعض بالعقل الالكترونى . ولكن ، بعد الاقتراب المتواضع من عالم « العقل » ، ونعنى هنا العقل البشرى بالذات ، علمنا الفارق الهائل بين امكانيات العقل ، بما يتميز به من ادراك وفهم ومعرفة بل وحكمة ، وبين امكانيات « الحوسبة » فى الكمبيوتر . ومع ذلك فالكمبيوتر قد صار بلا مناقشة من أهم أدوات ووسائل العقل البشرى فى صناعة المستقبل .

ومن هنا جاءت محاولات تطوير هذه الأداة المحورية الأخيرة ، التى بدأت من عشر سنوات تقريباً ومثلت بالنسبة لمراحل تطورها « الجيل الخامس » حيث استهدفت تقريب عملياتها من « بعض » العمليات التى تجرى فى العقل

البشرى ، تأكيداً لدخول الحضارة البشرية عصر توظيف الذكاء الاصطناعى ، كإمتداد وإضافة تكنولوجية ، استحدثها فيض الذكاء البشرى . هذا الذكاء الاصطناعى لا يضيف فقط إلى الدور المتزايد للكمبيوتر فى « هندسة المعرفة » بمعنى التقدم المستمر فى كفاءة تخزينها واسترجاعها والتحكم فيها وتوجيهها ، لكن من المتوقع أيضاً أن يضيف أبعاداً جديدة لفهمنا لطبيعة العمليات المعرفية التى تجرى فى عقولنا ، بما يسمى أحياناً « بنظرية المعرفة التطبيقية » !!!

● ومهما كان طموح الانسان فى عصر الذكاء الاصطناعى موضوعياً أو مبالغاً فيه ، فإن سهم التقدم البشرى The arrow of human progress يتهدده بالاستخدام المجازى لثقافة الكمبيوتر اتجاهان ، صلتهاما الجدلية قوية ، حتى وإن بدا الأمر غير ذلك عند النظرة المتسارعة . هذان الأمران هما : الغباء الاصطناعى وفيروس النموذج المهيمن . ان ما يجمع هذين الأمرين هو اعاقه سهم التقدم القائم على التطوير والتحديث والتنويع ، وإطلاق كل طاقات العقل البشرى الثقافية والروحية ، دون جهود ايديولوجى محدد أو محدود . تجمعهما سلفية تلغى المستقبل لصالح لحظة مضت ، أو لحظة ستمضى بان الله . ولكن كيف يجرى ذلك ؟ لتوقف - رغم خطورة فعل التوقف فى هذا الزمان - امام كل منهما لتوضيح ما سبق من معان .

● الغباء الاصطناعى ، كما يبدو من اسمه ، عكس الذكاء الاصطناعى . فبدلاً من أن يعمل سهم التقدم على تقريب الكمبيوتر من عقل الانسان تأتى مختلف الأشكال السلفية لتصر على قهقرة عقل الانسان إلى ما يشبه أجيال الكمبيوتر السابقة . فالايديولوجيات الجامدة تطلب تخزين برنامج كل منها

سواء كان هذا البرنامج اقتصادياً سياسياً ، أو قائماً على فهم ضيق أو متطرف لعقيدة أو مذهب ، في عقول اتباعها . وليس المطلوب الا استرجاع هذا البرنامج ، بأقل هامش ممكن ، أو حتى بدون هامش للتنوع والتطوير والابداع ، أو ما نسميه في ديننا الحنيف بالاجتهاد . هذا الذي يصطنعه البعض دون حق أو سند ، ألا يستحق هذه التسمية القاسية : الغباء الاصطناعي !!!

● ولا يقل عن ذلك خطورة وخطراً ، بل ادعى ان يزيد عنه ، هذه السلفية الجديدة ، التي لا تدعو إلى لحظة ماضية ، وإنما إلى لحظة حاضرة عابرة ، تقدم « النموذج الأمريكي » ثقافياً واعلامياً واقتصادياً وسياسياً باعتباره الايديولوجيا ، التي قامت على انقراض نهاية الايديولوجيات كلها ، مع ادعاء انها قامت لتبقى ، ولتتمحو كل برامج أخرى تختلف عنها في تفاصيلها . تماماً مثل فيروس الكمبيوتر ، الذي يهدد برامج الأجهزة المختلفة . إن « فيروس النموذج المهيمن » لن يلقي معارضة فقط من الجنوب ، أو حتى الكتل المنافسة كأوروبا واليابان ، لكنه سيلقى معارضة من أصحاب الأفق الواسع في أمريكا نفسها . وكما استطاعت قطاعات من الكتلة البشرية الحية في الولايات المتحدة ان تقنع ساستها بالخروج من « الغزو الفيتنامي » فالأمل معقود على ان تتم نفس التفاعلات المجتمعية لوقف « الغزو الاعلامي » بكل توابعه وحواشيه . في هذه الحالة فقط ، يمكن ان يقوم النظام الكوكبي الجديد على صيغة متوازنة تقرر الاعتماد المتبادل والوجود المشترك وتعطى للشرعية الدولية مضمونها الحقيقي الذي تفتقده في كثير من الأحوال ، بسبب تدخل فيروس النموذج المهيمن في برامج الدول الأخرى والمنظمات الدولية . واللييب بالاشارة يفهم !!!

٥ . تكنولوجيا الفكر والفعل

يستدعى التسارع الكبير في معدل تغير انماط الحياة الخاصة بمختلف الأمم والشعوب ، مراجعة مستمرة لآليات هذا التغير ، وللنظريات المفسرة لآثارها الحاضرة ، ولاحتمالات تطورها وتطورها في المستقبل . ومن أهم المجالات التي تجذب انتباه المهتمين ، شبكة العلاقات المعقدة بين الفكر والفعل سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات ، أو حتى الدول والتكتلات . ان فهم وتحليل هذه الشبكة يمكن ان يلقى الضوء على مجمل أشكال ومستويات الصراع الوجودي للبشر في كل زمان ومكان . ويدفعني إلى معاودة معالجة هذا الموضوع امران : أولاً ، رد الفعل (أو رد الفكر ، كما اسميه) الايجابي لمقال نشرته حديثاً بجريدة الأهرام القاهرية (٢٨ يونيو ١٩٩١) ، تحت عنوان « تكنولوجيا الكلمة » ، حيث عالج الجزئية الخاصة بالتعامل المتناقض مع مجموعة من الكلمات المفتاح key Words ، التي اتفق البشر جميعاً على تعريفها ، واختلفوا بشدة حول توظيفها . اما الأمر الثاني ، فيتمثل في التشكك الكبير ، الذي يبديه البعض نحو كفاءة القدرة التنبؤية للدراسات المستقبلية ، وبالذات فيما يتعلق ببناء السيناريوهات المختلفة للمستقبل ، لأنها تتم في الواقع على أساس تحليل مجمل الأفكار والأفعال المطروحة على الساحة . هذا التشكك ظهر بأحلى معانيه بعد »

الانهيار الدرامى « للكتلة الشرقية ، وكذلك « الغزو الصدامى » للكويت والشقيق ، فقد كانا حدثين غير نمطيين وغير متوقعين ، وان كان ذلك لا يعنى ان يكونا غير مخططين ، فهذه قصة أخرى ؟!

تكنولوجيا الكلمة

فى البداية نود ان نتحدث عن مفهوم التكنولوجيا ، الذى يحاول هذا المقال ان يطرحه ، متجاوزاً مفهومها الشائع ، بحيث يمكن فى ضوء المفهوم الواسع - ولا أقول الجديد - معالجة قضايا جدلية الفكر والفعل التى يطرحها المقال . تعرف التكنولوجيا بكونها أحد المحددات الثقافية ، التى لا يقل اثرها فى تشكيل حياة البشر عن الفلسفات والمعتقدات والنظم الاجتماعية والاقتصادية . اما مفهومها الشائع حالياً ، فيقتصر لدى الغالبية العظمى على التمكن من طرائق التصنيع والانتفاع بها ، مع التطبيق المنتظم للمنجزات العلمية فى الأغراض التطبيقية . وعلى ذلك ، فالمفهوم الواسع يقترح معاملة آليات اكتساب وابداع الفكر ، وكذلك آليات انعكاس هذا الفكر بشكل متناغم أو متناقض مع السلوك والأفعال ، من منطلق انها كلها تكنولوجيات يمكن العمل على تجويدها وتطويرها ، وتعظيم قيمتها المضافة على أفعالنا ، بشكل يساعد على زيادة كفاءة التصدى لمختلف المشكلات البشرية الخاصة والعامه . ولعله من الأفضل ان نفصل مقصودنا ، بشرح الواقع الحالى لتكنولوجيا الكلمة ومشكلاتها .

يحمل الانسان في نفسه قدسية خاصة للكلمة . فهو يعلم انه في البدء كانت الكلمة . ولانها كانت كلمة الله ، فقد صارت واجبة النفاذ (كن فيكون) . كمال مطلق ، ينبثق من اجتماع المعرفة الكلية مع القدرة الكلية . هذا كمال من ليس كمثله شيء ، سبحانه وتعالى . اما تاريخ الانسان - خليفة الله في الأرض - فما هو الا مسيرة شديدة العناية ، تطمح في وتطمح إلى الحصول على قيس من نور هذا الكمال المطلق ، كمال التناغم والتجانس والائتلاف بين الفكر والفعل . لكن هذه المسيرة ، رغم عثراتها ، امدت البشرية بما اسميناه بالكلمات المفتاح ، التي تجتمع عليها العقول والقلوب ، لما في مضمونها من امكانيات يكفى حدها الأدنى إذا تحول من فكر إلى فعل ، ان يقضى على كل ما يواجهه البشر من مشكلات ، وعلى كل المستويات .

★ هذه الكلمات تمثل رموزاً لمجموعة من القيم والأنشطة ، التي ارتضى بها أو مارسها البشر على مر التاريخ . هذه الرموز أغلبها قديم ، لكن بعضها اكتسب حداثة ملحوظة في التاريخ المعاصر . مثل هذه الحداثة ، تؤثر بالقطع على ما يكمن وراء الرمز من مفاهيم ومضامين . والرموز التي ظلت على قدمها النسبي ، تعبر عادة عن خلاصة تجارب الانسان الدينية والروحية . ورغم خضوع مضامين كل الرموز للتطور الحتمي ، الا ان الرموز الأكثر اكتساباً للحداثة ، يختلط فيها الديني بالديني بشكل أكبر وبدرجات متفاوتة . ويمكننا هنا ان نستعرض بشكل أساسى أربعة منظومات من الرموز ، اثنتان للقيم واثنتان للأنشطة . لعل أقدم منظومات القيم ، وأكثرها روحانية ، هي منظومة : « الحق - الخير - الجمال » ، وكل كلمة من كلماتها المفتاح يمكن ان

تحتضن الكثير من الكلمات الأخرى ، كالعادلة والايثار والحب . ومن منظومات القيم التي يمتزج فيها الدينى بالدنيوى ، منظومة : « الحرية - المساواة - الاخاء » . هذه الكلمات المفتاح نجدتها بنصها ، أو بمعانيها ومشتقاتها في معين ثقافتنا العربية الإسلامية الذي لا ينضب ، أى القرآن الكريم والسنة المطهرة ، لكن دعاة « التغريب » ، لا يستشعرون نحوها الا انها تمثل شعار الثورة الفرنسية !!

اما منظومات الأنشطة البشرية ، فأقدمها واجلها منظومة : « الفلسفة - الفن - الأدب » ، وأحدثها وأهمها منظومة : « العلم - التكنولوجيا - التنمية » . ورغم الكثير والصحيح ، الذى يمكن ان يقال عن التطور الكبير ، الذى لحق بكل الكلمات المفتاح في المنظومتين الاخيرتين ، وعن العلاقات المتبادلة بينهما كعلاقة الفلسفة بالعلم ، والفن بالتكنولوجيا مثلاً) ، الا ان الانجازات المتلاحقة بعيدة الأثر لمنظومة العلم والتكنولوجيا والتنمية ، جعلتها أكبر عوامل التغيير في عالمنا المعاصر . الذى لا أمل في حل مشاكله الا بارتباط ايقاعها بالمنظومات الأخرى . ان غياب الارتباط المذكور يمثل قمة القصور في « التكنولوجيا البشرية » ، المسؤولة عن « كفاءة » تحويل الفكر إلى فعل !!

عوامل القصور

★ وإذا ما أردنا ان نوجز « العيوب الفنية » الواضحة في « تكنولوجيا الكلمة » ، من منظور الواقع المعاصر للمجتمعات البشرية المنقسمة حضارياً

إلى شمال وجنوب ، فانها تتمش في : عدم التوازن العام - عدم التوازن الخاص -
إساءة التوظيف والخلط ، بعمد أو بغير عمد - قصور الوسائل الثقافية . ألا
تستحق كل عبارة من هذه العبارات بعض الشرح والتعليق ؟ فلنحاول ذلك في
السطور التالية :

- يتضح عدم التوازن العام في الواقع العالمي ، حيث نجد شمالاً شديد
التقدم المادى (أميركا وأوروبا الغربية واليابان) ، يأخذ بشكل جدى مسؤولية
المساعدة على حل مشاكل الشمال الأقل تقدماً (أوروبا الشرقية) ، وجنوباً
يعانى من كثير من مشكلات التخلف ، والأدهى من ذلك انه لا يلقى نفس
الاهتمام والاخلاص ، رغم انه تاريخياً قدم الكثير للبشرية كلها . ولتراكم
عوامل كثيرة يصعب تفصيلها في هذا الحيز المحدود ، التزم الشمال الاميركى -
الأوروبى بالذات بجرعات أكثر دنيوية عند التعامل مع كل منظومات القيم
والأنشطة السابقة ، فأحدث التقدم المادى المتسارع ، وان كان يشكو من فقر
روحي مؤكد . ومثلث اليابان حالة خاصة من حالات التحدى الحضارى ،
استخدمت فيها استيعابها الخاص للقيم لدفع عجلة الأنشطة ، وتضافر
الاستنزاف الاستعماري والهروب من التحدى وفقر الإبداع والاجتهاد في احداث
التخلف الجنوبي . وتراكم آثاره .

- أما عدم التوازن الخاص ، فينجم عن تبني الكثير من مثقفي الجنوب
نفس المضامين والتفسيرات الشمالية لكل الكلمات المفتاح ، متذرعين بأن هذه
هى رسالتهم باعتبارهم « نخبة » الجنوب ، التى تتطلع إلى « الحاقه » بالشمال
ان هذا اللاحاق غير ممكن . وغير مطلوب . وعادة ما تنعزل هذه النخبة ،

وتفقد دورها الحقيقي المطلوب « كطليلة » تنفصل عن ثقافة مجتمعاتها ، وعن
املها المنشود في شق طريقها الخاص للتكيف المشرف مع كل المجتمعات
الأخرى دون ذوبان أو عزلة . . وأكرر ، دون ذوبان أو عزلة ، وهذا أمر لا
تطبيقه نخبة منفصلة ، وانما تستطيعه طليعة متصلة !!!

- ومن أكثر أشكال القصور شيوعاً في الشمال والجنوب معاً ، مع اختلاف
الأغراض والأهداف ، سوء استخدام أو توظيف الكلمات (الخلط لفظية -
Malapropism) . هذا السوء يتجاوز كثيراً ما وصفه هـ ج . ويلز في «
تاريخ مستر بوللي » ، عن افتتان الرجل بالكلمات ، وعدم قدرته على نطق
الجديد منها بشكل سليم ، مما جعله يدخلها في تراكيب ومعان مستغربة . الا
نعانى جميعاً من مثل ذلك في هذه الأيام ؟ هل يمكن ان نقبل تفسيرات مجنونة
لعبارات مثل أم المعارك والحق التاريخي ؟ وهل نأخذ تفسيرات أخرى مثل
الشرعية الدولية والنظام العالمى الجديد على علاقتها ؟ والقائمة قد تطول لتشمل
كثيراً من الألفاظ والكلمات والرموز الشائعة ، التى تصرخ بانفصال الفكر عن
الفعل .

- آخر أسباب القصور « في تكنولوجيا الكلمة » ، التى نتعرض لها هنا ،
تتركز في بعد الوسائل المستخدمة لتحسين الاداء والتطوير على المستوى
المطلوب . هذه الوسائل الثقافية (التربية - التعليم - الاعلام) تعانى كثيراً
بسبب عدم اعتمادها على فهم واضح لبيولوجيا وكيمياء المخ والسلوك (الفكر
والفعل !!!) في الانسان . فرغم الاتفاق الكامل حول وجود اساس بيولوجى
لنشأة وتطوير منظومات القيم والأنشطة ، الا ان التراكم العلمى الدقيق
للمعلومات المتعلقة بهذه المجالات ما زال متواضعاً .

هذه النقطة الأخيرة تقودنا إلى وضعها كمحور هام لتفسير القصور العضوى فى كثير من الدراسات المستقبلية ، التى تنبنى على توقع الفعل ورد الفعل ، وكذلك « الفكر ورد الفكر » . فكيف يتم التوقع بدرجة كافية من الدقة ، إذا كنا لا نفهم آليات الفكر والفعل فى الانسان ؟ ولعل الاكتشافات المتتالية ، التى تربط محددات وراثية معينة (جينات) بخصائص عقلية أو سلوكية مختلفة ، إذا ما أحسن التوظيف المجتمعى لتتائجها ، دون ان ينقلب الأمر إلى « تصنيف بيولوجى » للبشر يفوق فى بشاعته التمييز العنصرى ، أقول لعل هذه الاكتشافات تمثل ثورة فى طرق التواصل والاتصال بين عقول البشر . هذه الثورة ، التى تجرى أبحاثها على قدم وساق ، يمكن ان تسهم بشكل إيجابى واضح فى رفع كفاءة طرق تحويل وترجمة الفكر إلى فعل ، على مستوى الأفراد والجماعات . ويبدو ان العلم ، الذى صار « يخترع » المستقبل ، سيمدنا « بأقراص الصدق » ، التى تجعلنا نقول ما نفعل ، ونفعل ما نقول ، ونخرجنا من « أرض النفاق » إلى دنيا يعيد البشر بناءها ، طبقاً للمضامين الصحيحة لكل الرموز والمنظومات السابقة ، وهى المضامين التى تتلاءم مع انسانية الانسان ، والتى تمثل حلمه المراوغ عبر الزمان .

٦ - نَحْوَ رُؤْيَا أُولَاة لَفِيزِيْقَا الْوَعْي :

لِكُلِّ فِكْر رَدُّ فِكْر !!!

الحديث عن فيزيقا الوعي ليس حديثا عن الفيزيكا ، بقدر ما هو حديث عن الوعي ، يستهلم مصطلحات وقوانين الفيزيكا ، ويستفيد من رؤْيَا أصحابها للكون ، وهى الرؤْيَا التى تمتد لتشمل ما دون الذرة إلى ما فوق المجرة . وكنقطة بداية متواضعة - أو هكذا يجب أن تكون - سيقصر حديثنا على قوانين نيوتن للحركة ، وهى القوانين السابقة على نظريات أكثر إكتمالاً وتعقيداً مثل النسبية والكم ، ومحاولات الوصول إلى نظرية موحدة لكل قوى الطبيعة . إن هذه النظريات لا غنى عنها عند التعرض للحركة بسرعات كبيرة ، حدها النظرى الأقصى هو سرعة الضوء ، لكن معرفتنا الحالية بفيزيكا الوعي لا تتعدى « الرؤْيَا النيوتنية » ، التى يعرضها هذا المقال ، وإن كان حق الطموح فى تخطى هذه الرؤْيَا محفوظ !!!

● ولعل أقصر طريق لتوضيح مقصودنا باستلهم مصطلحات وقوانين الفيزيكا عند الحديث عما أسميناه بفيزيكا الوعي ، أن نذكر الأسماء التى أعطيت لقوانين نيوتن الثلاثة للحركة ، وهى : القانون الأول المتعلق بالقصور

الذاتى ، وقانون القوة المؤدية إلى التغير المتسارع ، وأخيراً قانون الفعل ورد الفعل ، الذى سنتخصه بمناقشة أوسع . ورغم ما فى منجزات الفيزياء من « جاذبية » ، جعلتها مادة خصبة لمناقشة موضوعات أثيرة لدى الكثيرين مثل الإيمان بالله وحركة المجتمع . إلا أن معالجة هذه الموضوعات التى تتم أحياناً فى إطار « النصوص » الفيزيائية دون « تأويلها » المناسب ، قد تؤدي إلى إختزالية reductionism غير مقنعة . إن الإطار الملائم ، هو الإقتناع بوحدة المعرفة ، الذى عمل فى الفترة الأخيرة على نقل الأنشطة العلمية المختلفة من مرحلة التخصص الذى يحاول الانفراد دون جدوى ، إلى مرحلة الدراسات البينية - inter multi - والمتعددة . وأخيراً العابرة أو المتجاوزة transdisciplinary . والمجال يضيّق عن ذكر الفروق بين هذه النوعيات ، ولكن يبقى الوعد بالإلتزام بها عند مناقشة الرؤية النيوتنية لفيزيكا الوعى .

● والآن ، ماذا يقول صاحب الكتاب ، الذى يعد من أشهر الكتب وأعظمها ، ألا وهو كتاب « المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية » ، « المبادئ » ، أو برنسبيا » ، على سبيل الإختصار ؟ يذكر نيوتن أن التفكير دونها إنقطاع فى الديناميكيات السماوية ، قاده إلى محاولة تفسيرها عن طريق قوانينه الشهيرة . ينص القانون الأولى على أن « كل جسم يظل على حالته الساكنة ، أو المتحركة بسرعة ثابتة ، ما لم تتدخل قوة خارجية لتغيير هذه الحالة » ، وهو قانون يلخص كما نرى حالة القصور الذاتى لأجسام منفصلة ، غير فاعلة . ويأتى القانون الثانى ليتحدث عن القوة الخارجية التى « تضع الجسم غير المتحرك فى حالة الحركة ، أو تغير من سرعة أو إتجاه الأجسام المتحركة أصلاً ،

بمعدل يتناسب مع القوة ويكون في إتجاه تأثيرها » ، وهذا المعدل يسمى بالتسارع ، ويعرف بأنه معدل التغير في السرعة منسوباً إلى الزمن . أما القانون الأخير ، فيقيس إنفعال الجسم بالقوة المؤثرة ، حيث تقرر صيغته الشائعة أن « لكل فعل رد فعل ، مساوٍ له في المقدار ، ومضاد في الإتجاه » . هذه هي النصوص ، فهاذا عن تأويلها ، الذى قد لا يرضى صاحبها ، الذى إستخدمها في وضع صورة آلية للكون ، والذى لم يكن مكترباً بالتكامل بين العلوم الطبيعية والإنسانية !!؟

● تأتى ضرورة تأويل هذه النصوص الفيزيكية وتحاورها ، عند إستلهاها في الحديث عن فيزيقا الوعى ، من أننا نتعامل في هذه الحالة مع مادة إستطاعت - عبر زمانها ومكانها الخاصين - أن تقفز قفرتين نوعيتين هائلتين : الحياة والعقل . ففى كوكب بعينه ، وفى مجرة بعينها ، وبعد تتالى العديد من الأحداث ، ظهرت شجرة الحياة ، ثم فى أحسن تقويم وهبها الله أرقى ثمراتها : الإنسان . ورغم أن كل ما فى سلسلة الوجود الكبرى يتكون من نفس العناصر ، وكل عنصر يتكون من نفس الذرات ، وكل ذرة بها نفس الجسيمات ، إلا أننا لا نستطيع إختزال ظاهرة الحياة بتقدير مختلف العناصر فى خلية حية ، ولا أن نعرف الوعى بعدد من المعادلات الكيماوية . أقول ذلك ، رغم ما هو معروف من تقدم مذهب فى دراسة كيمياء الحياة ، ورغم قناعتى بأهمية ما يجرى اليوم من بحوث لدراسة « كيمياء الوعى » ، فهذه قصة أخرى تستحق معالجة منفردة .

● نعود إلى قوانين نيوتن فنذكر أن القصور الذاتى ، الناجم عن غياب

المؤثرات الخارجية ، لا مكان له في زمان المعلوماتية والاتصالات . وإن كانت الدراسات الانثروبولوجية للقبائل الصغيرة المنعزلة ، التي تعيش خارج التاريخ وتكتشف مصادفة ، قد تقدم أقرب النماذج . هذه الحالات النادرة تفلت من الباحثين فرصة دراستها المتأنية ، لأنهم هم أنفسهم قوة خارجية مؤثرة ، تنتقل بالوضع كله إلى القانونيين الآخرين . وهذا القصور الفيزيقي ، الذي لم يوجد حتى في النظام الشمسي بحكم الجاذبية ، غير ما يتبادر على ذهن القراء والكتاب على حد سواء ، عند سماع كلمة القصور الذاتي ، المعبرة عن تخلف مجتمعاتهم ، وإن كانت أيضاً لها من علاقات الجاذبية مع « القوى الخارجية » ، ما يجعلها تستعصى على القانون الأولى .

● أما القوى الخارجية ، التي يتعرض القانون الثاني لدراسة تأثيرها ، فرغم أنها فسرت المسارات المنحنية للأقمار والكواكب والمذنبات بسبب الجاذبية ، مما ساعد على قياس معدلات التغير والتسارع طبقاً لحالات البعد والقرب من الشمس ، إلا أن الصورة الإجمالية إتضحت من القانون الثالث ، الذي بين عن طريق وجود الفعل ورد الفعل أن الجاذبية متبادلة ، وأنها لا يمكن أن ندرس الوضع الكلي لمنظومة ما ، دون أن نأخذ في الاعتبار علاقات الاعتماد المتبادل بين مكوناتها . ولكن ، إذا كانت الصورة البسيطة لتأثير الفعل - كما يقدمها القانون الأخير - تنص على نشأة رد فعل مساوٍ في المقدار ومضاد في الاتجاه ، فما هي طبيعة العلاقات التي تنشأ عندما ينبعث في المادة سر الأسرار (الحياة) ، وقدس الأقداس (الوعي) ؟ يمكننا في هذا المقام أن نقدم التأويل الآتي :

- عندما تكتسب المادة بذراتها « السَّابِحة والمُسَّحة » سر الحياة ، فإنها تتعلم « قوة المحافظة » على شكل الحياة المحدد الذى تمثله بهدف الإستمرار والبقاء . وأهم دروس قوة المحافظة هو « التكيف » مع كل الضغوط وعوامل الإجهاد الخارجية فى الوسط المحيط ، بما فى ذلك ما تسببه أشكال الحياة الأخرى . فقد يكون التكيف مع الحرارة أو الرطوبة ، كما يكون مع المفترس أو الفريسة . وفى النهاية يصل فلك الحياة إلى توازناته العجيبة ، فى كافة مراحل تاريخه التطورى ، حيث تولدت أنواع وانقرضت أخرى ، وسادت أشكال وإنزوت أخرى . والقانون هنا يمكن أن يكون : « لكل جهد stress رد جهد ، متناسب معه فى الشدة ، ومتكيف adapted معه فى الاتجاه !!! » .

- وإذا كان قانون الحياة عماده التكيف ، الذى يتجاوز رد الفعل الأعمى ، فماذا عن الوعى ؟ ماذا عن الكائن الذى إتصف به ، ويحسب أنه جرم صغير وفيه إنطوى العالم الأكبر ؟ لقد بدأ بالإنسان « عصر الخلافة » ، فهو خليفة الله فى الأرض ، ولأنه مكلف بذلك فقد منحه الله الشهادة الوحيدة المؤهلة لهذا التكليف : الفكر !!! وإذا كان يعيش اليوم مرحلة مراجعة حصاد ما مارسه من فكر حيال الطبيعة الحية وغير الحية ، فإن أهم مراجعة هى الخاصة بحصاد تفاعل الفكر بالفكر . إن الشكل الصحيح لهذه العلاقة هو « الحوار » ، فهو أرقى أشكال رد الفعل ، أو هو « التكيف المشرف » كما أسميه * . والقانون هنا يمكن أن يكون : « لكل فكر رد فكر ، متناسب معه فى العمق ، ومحاور له فى الاتجاه » !!! لكن هذه الحالة المثالية لا تتحقق دائماً ، بل قل لا تتحقق كثيراً . فالعلاقات الإنسانية نادراً ما تكون فى هذه الحالة

* فضلت بعد ذلك إستعمال مصطلح « التكيف الإيجابى » .

الراقية ، وكثيراً ما تنزل إلى مرتبة التكيف المجرد أو حتى رد الفعل المستسلم ، الذى تبديه الكتل القاصرة ذاتياً حيال الكتل الأخرى القوية ، التى تقع فى مجال تأثيرها !!! والمناقشة أيضاً يمكن أن تمتد إلى البنية الداخلية لمختلف الكتل البشرية ، فغياب الحوار قد يؤدى إلى التكيف القهرى ، أو إلى عنف الفعل ورد الفعل . دعونا نتوقف هنا ، لأننا ننساق إلى الكلام فى السياسة ، ونيوتن كان حكومياً من رأسه إلى أخمص قدميه !!! لكننا نتساءل فى النهاية : ماذا لو تطرقنا إلى رؤية « فيزيقا الوعى » وآفاقها ، فى ضوء النسبية والكم والنظرية الموحدة لمختلف القوى الكبيرة والصغيرة المسماة « بالكأس المقدسة » ؟ أؤكد أننا يمكن أن نتوقع الكثير . . . الكثير ، وهذه هى إحدى فوائد الإهتمام بالعلم كشقافة science as culture ، وهو مفهوم يستحق أن نتأمله « بوعى » !!!

٧ - أكاديموس ... أوزون المستقبل أوهام العزلة ، ومخاطر الاختراق !!!

من الظواهر الصحية فعلاً ، أن يبدو مجتمعنا منشغلاً بالمستقبل . والمطلوب ان يكون هذا الانشغال حقيقياً ، يمكن من خلاله أن يتحول الفكر المستقبلي إلى فعل مستقبلي . ولذلك فمن الضروري أن نهتم بسلامة الفكر ، التي لا يكفي لضمانها حسن النية ، ولكن يجب أن يمتد الأمر إلى صحة المنهج وعمق المعالجة وضبط المصطلح وأكرر ضبط المصطلح . وإذا لم يحدث ذلك بصورة مرضية ، فلا بد وأن نعرف بأن أحاديث المستقبل لن يكون لها مستقبل !!!!

● ولكن ما الذي يدعوني إلى هذا الكلام ؟ اننى مهتم « ومهموم » بالتغير الكبير في قدرات البشر على صياغة « تاريخ المستقبل » ، واتجاههم المعلن بجعل هذا التاريخ مشتركاً . ولا يختلف انسان على الدور الكبير الذى تلعبه انجازات الدوائر الاكاديمية في مختلف المجتمعات البشرية في صياغة هذا التاريخ ، سواء كانت هذه الانجازات في العلوم الطبيعية أو الانسانية ، أو كانت ذات صلة مباشرة أو غير مباشرة . . . عاجلة أو آجلة ، بمشكلات مجتمعية يمكن ان تسهم في حلها . بل ان منجزات العقود الأخيرة في الفيزياء

والبيولوجيا ، قدمت بالإضافة إلى الاشباع المعرفي الخاص برغبة الانسان المشروعة في فهم العالم ، ما سمي بحق « الحل الذى يبحث عن مشكلة » . ومن أشهر المنجزات التى ينطبق عليها ذلك ، الليزر والهندسة الوراثية ، اللذان يقدمان الحلول المبتكرة لطيف واسع وشديد التنوع من المشكلات . لذلك « فمن غير المستقبلى » ، على وزن من غير المنطقى ، أن يقترن الحديث في كثير من الأحيان عن المناخ الاكاديمى (أكاديميزم academism) بالتأكيد على خطيئة العزلة وضرورة الاحتراق . وقبل ان نفسر عدم مستقبلية ذلك ، لا بأس من ان نتذكر باختصار شديد أصل حكاية الاكاديميزم المذكورة .

● تنبئنا المعاجم والموسوعات أن بطلاً اغريقياً اسمه أكاديموس قد اشتق من اسمه كلمة أكاديمية academy التى أطلقت على بستان صغير للزيتون وشهد هذا المكان دروس أفلاطون لتلاميذه (٣٨٧ ق . م) . ومنذ عصر النهضة ، تطور استخدام كلمة أكاديمية لتطلق على مؤسسات التعليم العالى والمتقدم فى أوروبا ، حتى ظهرت تسمية « جامعة » فى القرن الثامن عشر . وقد استخدمت كلمة أكاديمية أيضاً لوصف تجمعات الاعلام والخبراء « المتميزين » فى مختلف العلوم والفنون . ومنذ القرن التاسع عشر ، أطلقت هذه الكلمة على المراكز القومية ، التى تعنى بتقدم العلوم والآداب والفنون فى كثير من البلدان . ومنذ نشأة الأكاديمية الأولى بدأ تشكل مفهوم الحرية الأكاديمية ، الذى أظن ان أول أشكاله تمثل فى « تنوع » تلاميذ أفلاطون . أما المفهوم الحديث بما يتضمنه من حرية التفكير والتعبير والبحث ، والمسئولية المجتمعة التى تبدأ بضرورات الأمانة والعقلانية وعدم التحيز وتنتهى « بالعقد

الاجتماعى » بين الأكاديميات ومجتمعاتها ، فقد ظهر مع التنوير (فى القرنين ١٧ ، ١٨) ، وتطور ليفرق بين حرية التعلم وحرية التعليم (القرن ١٩) ، وأخيراً نشأت من أجله المنظمات ووضعت المواثيق (القرن الحالى) . وللتعبير عن فلسفة العمل الأكاديمى واخلاقياته وأساليبه فى بناء كوادره يستخدم أحياناً مصطلح اكاديميزم المفترى عليه ، رغم اننى أشبهه بطبقة الأوزون التى تحمى أهم مراكز صنع المستقبل . ولذلك من حقنا ان نتساءل : لماذا نستشعر أحياناً بعض الهجوم على ما يسمى بعزلة المناخ الأكاديمى فى مراكز البحوث والجامعات ؟ ولماذا نسمع عن دعوات الاختراق ؟ هل هناك ثمة « قدر بنوى محتوم » ، يفرض العزلة ويغرينا بالاختراق ؟ أسئلة أرجو ان يكفى لاجابتها السطور القليلة المتبقية .

● ليست هنالك عزلة محتومة أو اختراق ضرورى . . . المسألة كلها تنحصر فى ضبط المصطلح المطلوب للتعبير « المقبول مستقبلياً » عن العلاقة بين التجمعات الأكاديمية ومجتمعاتها التى أفرزتها ، وفى أهمية أن يتحول مضمون هذا المصطلح الصحيح إلى واقع . أما المصطلح المقترح فهو « التواصل » ، ودليلى على صحته الكاملة يأتى من استقرار عبقرية تركيب الكائن الحى وخلاياه . ان أهم مركزين فى الكائن هما النواة (مركز الشفرة الوراثية بالخلية) والمخ (مركز الوعى بالجسد) وكلاهما يبنى عملهما على المحافظة عليهما وحمايتهما بتراكيب متخصصة (دون اتهام بالعزلة المميتة أو تهديد بالاختراق المدمر) ، مع توفير قنوات التواصل بين النواة وبقيّة الخلية ، وبين المخ وبقيّة الجسد .

ان المراكز الأكاديمية ، التى يبنينا المجتمع بشكل سليم ، ويضع فيها

كفاءات وخبرات ابنائه في شتى العلوم والآداب والفنون ، جديدة فعلاً بأن تمتلك الكثير من شفرة المستقبل ، وتلعب دوراً هاماً كأحد أجهزة الوعي في المجتمع . ولا يجب هنا ان يستغرقنا تاريخ الاسم ، فنقول ان أول اكااديمية عبرت عن اجهاض « المنهج السقراطى » في الالتحام بالناس في الأسواق وتصحيح مفاهيمهم . بل يجب ان نذكر هذه الأكاديمية انها كانت وسيلتنا الوحيدة للتعرف على حوارات سقراط ، أليس كذلك ؟ ان زيادة اعداد البشر وتعدد المجتمعات أثبتا ان « الأكاديمية » ليست حلاً انعزالياً ، ولكنها الحل العلمى لتكثيف وتجميع طاقات التقدم فى المجتمع لتتفاعل وتفرض هذا المجتمع الذى أتت منه وسائل وآليات احداث هذا التقدم المنشود ، والآن ، أظننا نتفق على ضرورة اصلاح بنية مؤسساتنا الأكاديمية وقنوات تواصلها مع المجتمع أخذاً وعطاء ، ويا أيها القائلون بالعزلة والمهددون بالاقترحام . . . هيا بنا نتواصل !!!!

٨ . حول الترجمة العلمية لمصطلح «جلوبالزم» :

كوكبية ... له ؟!!!

مع تزايد الإهتمام بالدراسات المستقبلية ، يكون من الطبيعي بذل الجهود الكافية لضبط مصطلحاتها ، حتى لا تختلط مضامينها بمضامين ماضوية ، أو تختفى ملامحها وراء تعريفات واسعة أو هلامية . وكحديثي عهد بمثل هذه الدراسات ، لا يقتصر ضبط المصطلحات بالنسبة لنا على ما تقدمه من مفردات جديدة ، ولكن يمتد ليشمل ضرورة الترجمة الدقيقة للمصطلحات المتعارف عليها في مجال المستقبليات ، والتي تزخر بها دراساته في العديد من اللغات الأخرى . ومع الإعتراف الكامل بمشروعية وثراء الاختلاف الفكري حول المصطلحات المعبرة عن مختلف المضامين المستقبلية ، إنشاءً ونحتاً وإشتقاقاً وترجمةً ، إلا أن محاولة تقريب وجهات النظر مطلوبة تماماً .

● والواقع أن المقال الحالي يتعلق بالترجمة ، وتحديدًا بالمقابلات العربية المستخدمة لمصطلح مستقبلي هام ، هو GLOBALISM (جلوبالزم) . قدم الكتاب ثلاثة ترجمات مختلفة لهذا المصطلح : الكونية - العالمية - الكوكبية . والملاحظ أن المعاجم الكبيرة قد تسعف كل منا بمادة تساعد على الجدل ،

والإلتصار للترجمة التى يستخدمها . ولكن ، إذا إتفقنا على أن يكون هدف الحوار هو التوصل إلى « أفضل » الترجمات لنستخدمها جميعاً ، فعلى الراغب فى المشاركة فيه ألا يكتفى بالاطمئنان إلى أن ترجمته ليست مستبعدة ، بل عليه إثبات أنها « الأفضل » ، موضحاً منهجه فى التوصل إلى هذه النتيجة ، مع الإستعداد لتبنى رأى الآخر إذا ثبت أنه أقوى حجة . ومع الإلتزام بكل ما سبق ، أوضح أننى إخترت أن أترجم مصطلح جلوبالزم « بالكوكبية » . والحق أننى لست وحدى صاحب هذه الترجمة ، لكننى سمعتها من الدكتور مراد وهبة منذ سنوات . وما دمت قد إخترتها ، فأنا مسئول عنها . ومن حق القارئ أن يسألنى : كوكبية ليه ؟!!

● فى عملية المفاضلة المذكورة ؛ سأنتقل من نقطتين : مفهوم مصطلح « جلوبالزم » فى الدراسات المستقبلية ، ومدى ملاءمة المقابل العربى المباشر ، للكلمة الأصلية التى أشقت منها المصطلح لهذا المفهوم ، لأنه لا مبرر للإلتجاء إلى مقابلات أقل مباشرة ، إذا ما حقق المقابل المباشر هذا الغرض . ورغم أن كلمة « جلوبالزم » إكتسبت أول أبعادها المستقبلية عندما إستخدمت للتعبير عن التوجهات الجديدة للإقتصاد « العالمى » ، التى تتخطى كافة الحدود الجغرافية والإيدولوجية ، إلا أن توفلر لم ينس أن يقدمها فى « الموجة الثالثة » ، باعتبارها من أوضح مظاهر الوعى الكوكبى-Planetary Con-sciousness ، الذى عدّه خطوة لازمة على طريق الوعى الكونى Cosmic . ولقد أضاف الفهم المتزايد لمشكلات البيئة الحديثة (التلوث النووى والكىماوى - ثقب الأوزون - تأثير الصوبة) ؛ تأكيداً لما أسميه بالإدراك الفلكى أو

الكوزمولوجى للجلوبالزم . فالدعاوى تتزايد لإنقاذ أمانا الأرض ، هذا الكوكب المعذب ، أو سفينة الفضاء التى يرتبط مصير البشرية بمصيرها . ولا ننسى أيضاً ، أن حركة الإنسان « الفعلية فى الكون قد صارت « كوكبية » ، تشمل بعض كواكب المجموعة الشمسية ، التى يرسل إليها سفنه الفضائية ، وإن كانت أجهزة رصده المتقدمة تتعدى ذلك بكثير ، حيث تتطلع إلى « الكونية » بمحاولة تقديم صورة أوضح عن الكون كله .

● وأظننا الآن نستطيع الانتقال إلى النقطة الثانية ، الخاصة بأفضل مقابل عربى للجلوبالزم . ذكرنا أننا أمام ثلاثة مقابلات : كونية - عالمية - كوكبية . وإذا كنا نقترح تفضيل الإدراك الكوزمولوجى ، فذلك لتمشيه مع المضمون المستقبلى كما أسلفنا ، ولقدرته على التخلص من كثير من الخلط الذى يحدثه استخدام هذه الكلمات فى مختلف المجالات . من هذا المنطلق ، دعونا نحاور المقابلات المقترحة ، مبتدئين بالبحث عن معانيها الإنجليزية فى النصوص العلمية . إن كلمة كون Universe (أو Cosmos) ذات المدلول المحدد فى الفلك ، تعنى من الناحية اللغوية هى ومشتقاتها الكلية والشمول والعالمية . . . إلخ (أجمل الفتيات مثلاً تسمى Miss Universe ، فهل هى ملكة جمال العالم أم الكون ؟ أم أن قناعتنا بعدم وجود بشر غيرها تجعلنا نصب فتياتنا ملكات للكون كله ؟) . وإذا ما أردنا أن نتحدث عن الكونية ، فالمقابل الإنجليزى المستخدم هو Universalism ، وهو مقبول إن لم يزعجنا أنه يدل فى نفس الوقت على عقيدة طائفة مسيحية تؤمن بالخلاص النهائى لكل البشر أما إذا أزعجنا الخلط ، فيمكن اشتقاقه من كوزموس (Cosmism مثلاً)

وبالنسبة لكلمة عالم ، فمقابلها الإنجليزي المباشر world شديد التنوع في مشتقاته ومنها ما يصلح ليعبر عن العالمية (world - wideness مثلاً) ، وإن كان العديد من هذه المشتقات غير شائع الإستعمال . وعموماً فهو مصطلح يحمل الكثير من بذور الماضوية بدءاً من المعنى الأصلي لكلمة عالم في الإنجليزية القديمة ، وتعني الرجل العجوز ، وإنهاء بمضمونه السياسي الذي يشهد تحولاً كبيراً (الحروب العالمية ، العالم الأول والثاني والثالث . . . إلخ) . ولا أود أن أطيل في معانيه القاموسية ، التي تصل أحياناً إلى وصف مجموعة من الأشياء ذات الملامح المشتركة (عالم الجماد ، عالم النبات . . . إلخ) . فما يعيننا هنا هو المعنى السياسي والاقتصادي للعالمية ، الذي يعد في واقعه مرحلة تحول إلى الكوكبية . إن العالم سياسياً وإقتصادياً يمر بالعالمية التي ستبقى لبعض الوقت ، لكنها ليست الجلوبالزم بأى حال من الأحوال . ونجىء أخيراً إلى كلمة كوكب ، فنرى أن ما يقابلها بالانجليزية كلمتان Planet ، Globe . والكلمة الأخيرة عندما تكون معرفة بالذات تعنى كوكب الأرض . هذا هو المعنى العلمى للكلمة التي يمتد معناها اللغوى إلى كل ما هو كروى . وعلى ذلك ، فعندما يكون الحديث عن مرحلة حضارية جديدة صار « كوكب الأرض » بسكانه كلهم على مشارفها ، فإن جلوبالزم لا تعنى إلا الكوكبية . . والكوكبية فقط وأخيراً ، بعد أن أجبت بالتفصيل على سؤال : كوكبية . . . له ؟ إسمحو لى أن أكرر فى المقالات القادمة : كوكبية . . . كمان وكمان ، مع الاعتذار للفيلمين الشهيرين عن الإسكندرية !!!

٩ - أزمة « الهوية »

في مشروعنا المستقبلي

لا شك ان التغيير ان التغيير المتسارع في عالم اليوم يؤثر بشكل مباشر على الفرد وعلاقاته بكل دوائر انتماؤه ، بدءاً بأصغرهما التي تضمه وأهله الأقربين ، وانتهاءً بأكبرها التي تضم البشرية جمعاء . ولا أظننا نحتاج إلى اثبات ان دائرتي العروبة والإسلام تمثلان المصدر الأكبر لهويتنا الثقافية .

والواقع ان النقد الموضوعي الذي يوجه إلى بعض الأعمال الفكرية بسبب غياب البعد المستقبل فيها ، غالباً ما يرتبط بشكل تلقائي بالهجوم على الماضي (التراث) . ورغم ما ينطوي عليه هذا التلازم الملحوظ من ظلم للماضي ، الا اننا نستطيع إلى حد كبير ان نفهم أسبابه ومبرراته دون ان يعنى ذلك الموافقة الضمنية عليه .

لا بد وان نعترف بها حدث في تاريخنا العربي الإسلامي من وأد للاجتهاد ومحاربة للمجتهدين ، وارتكان سهل إلى النقل دون اعمال العقل . باختصار شديد : لقد شوهت عناصر المستقبلية والحدثة في تراثنا الأصيل واستخدم الماضي الذي يتوجه إليه الهجوم بعنف وتعسف لاحداث ذلك ، دون ان يستطيع الدفاع عن نفسه لانه صار ماضياً .

اننى ادعو هنا إلى تبرة الماضى ، المتمثل فى الأصول والاطر العامة لانتائنا العربى الإسلامى لصالح المستقبل ، فلا يمكن للانسان ان يكون حيواناً ماضوياً فقط كما يتتبع المتطرفون فى السلفية المستندة إلى لحظات التجمد المتخلفة كما لا يمكن ان يكون حيواناً مستقبلياً فقط كما يتمناه دعاة الحداثة المتطرفة ، المستندة إلى قطيعة غير مبررة مع لحظات الماضى المشرقة . انه كائن تاريخى يجب ان يمثل الحاضر لحظة الاتصال لا الانفصال بين ماضيه ومستقبله . علينا أيضاً ان نرفع غبار الركود والجهالة عن عناصر الابداع والمستقبلية فى ماضينا (تراثنا) فليس كل جديد بدعة مرفوضة لأن من استن سنة حسنة فله اجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

ويقودنا الحديث عن اتصال الماضى بالمستقبل إلى الحديث عن الهوية وعلاقتها بأكثر الموضوعات البشرية إلحاحاً والمتمثلة فى الحاجة إلى صياغة نظام عالمى جديد . اننا ننطلق من أرض الواقع الذى يؤكد ان نجاح النظام العالمى يجب ان يستند إلى أكثر أشكال العلاقات البشرية عدلاً وتوازناً والحق ان الهوية الثقافية قد خدمت إلى حد كبير فى الوصول إلى صيغة أكثر عدلاً فى مرحلة التحرر الوطنى . لكننا يجب أيضاً ان نعترف بأن لعبة الديون فى مباريات العلاقات البشرية قد أجهضت الكثير من انجازات هذه المرحلة .

والسؤال الآن هل تنجح الهوية الثقافية فى خروج الطرف المدين من هذا المأزق ؟ اننى اعلم جيداً ان ازمة الديون تؤثر فى الدائن والمدين معاً . لكن الوضع أصعب بكثير بالنسبة للمدينين . الا نخدم دوائر انتاءاتنا العربية والإسلامية والافريقية بل ودائرة العالم الثالث (أو الجنوب) فى مواجهة الأزمة ؟

اننى مقنع تماماً ان الدائرة الأوسع التى تضم كل البشر يجب ان تعمل بكفاءة أكبر لمواجهة تحديات المستقبل من احتمالات الحرب الكونية والانفجار السكانى والتلوث والديون ولكن هل من الحكمة ان ننحى جانباً امكانات الدوائر الأضيق رغم اننا متأكدون من جدواها ؟

وأخيراً اتعرض إلى الهوية (العربية الإسلامية) بالتحديد وانى مع الذين عمدوا إلى البحث عن امكان تكامل هذه الهوية فى اطار رؤية عالمية تتمثل كل منجزات البشرية العلمية والتكنولوجية والاجتماعية مع تحفظى على التسليم بأن تكون روح العلم والتكنولوجيا المنفصلة عن التوظيف الإجتماعى لها هى سمة العصر ، بل ان الاستخدام الاجتماعى لها هو الذى يجب ان يشكل سمة العصر وكل عصر وهو الذى يجب ان يتحكم فى طبيعة واتجاهات تقدمها لصالح البشرية جمعاء إن هذا المفهوم « العضوى » للعلم ، هو وحده الذى يجعله صالحاً لأن يكون ثقافة المستقبل ، القابلة للحوار مع ، والإندماج فى كل الثقافات الحية القادرة على البقاء ، والتى لا أشك أن ثقافتنا العربية الإسلامية من بينها . علينا أن نسارع « باستعادة » الحوار مع روح العلم والتكنولوجيا ، لأن مستقبلنا يجب أن يكون أهلاً لذلك ، كما كان ماضينا المعروف* . وليكن من أهدافنا المستقبلية تنفيذ هذا الحلم حتى ولو كان ماضوياً فى رأى البعض !!! .

* إذا كان التحقيق المنصف قد توصل إلى أن علماء العرب والمسلمين هم دعاة « التجريب » فى العلم قبل بكون ، فإن التجريب هو سر تقدم العلوم الطبيعية ، وقد تزايدت مكانته بشدة فى العلم الإنسانى أيضاً .

١٠ - تغيير العالم * !!!

« إن الثقافة التي تستحث أبناءها كس يعملوا على بقائها ، هي وحدها
المحتملة البقاء. »

ن . ف . سكينر

نحمد الله أن النهايات الزمنية تختلف عن كثير من النهايات ، فهي موصولة ببدايات جديدة . إنها ليست شهادة وفاة لعام أو قرن أو ألفية ، بقدر ما هي شهادة ميلاد في نفس اللحظة لعام مقبل أو قرن جديد أو ألفية قادمة . وإذا كانت لحظة « النهاية / البداية » معرضة لأن يسبقها لحظات تطول أو تقصر تبعاً للظروف ، يغمرها بعض القلق والتشاؤم ، فلا ننسى أن اللحظات التي تليها لا تخلو عادة من الأمل والتفاؤل . لقد سجل التاريخ شيئاً من ذلك ، حيث ظهر مصطلح « نهاية القرن » في فرنسا منذ مائة عام تقريباً ، وكان يعنى الحداثة والمعاصرة ، ثم تحول بسرعة للدلالة على التدهور والفساد . أما في أمريكا الفتية ، الممتلئة بالحياة والتفاؤل وإمكانات التقدم ، فإن نهاية القرن كانت تعنى لها بداية قرن جديد ، وتطلعات وتوقعات صدق بعضها وأخفق البعض الآخر .

❖ قدمت كورقة عمل ، لندوة عقدت بمقر جريدة عكاظ بالقاهرة ، في ديسمبر ١٩٩٢ وشارك فيها الأساتذة : سامي خنبة - د . ضياء زاهر - نبيل عبد الفتاح - د . يوسف زيدان - أحمد يوسف القرعى . وأدار الندوة الأستاذ فتحى صالح مدير مكتب الجريدة .

والواقع أن نهايات الأعوام كانت تمثل بشكل أو بآخر لحظات احتفالية ،
بأكثر مما تمثل لحظات تاريخية . هذا إذا ما إستثنينا طبعاً الأعوام بل والأيام التى
جاءت بأحداث تاريخية لا تنسى كإلقاء القنابل الذرية ونهاية الحرب العالمية
الثانية مثلاً . كان التقييم يتم عادة بالنسبة للعقود وليس للأعوام ، وأحداثنا
فى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية ممتدة عن عقدى الستينات
والسبعينات وما قبلهما وما بعدهما . ولكن ، ما بال الحديث عن الأعوام قد
إزداد كثافة وإيجاء فى الفترة الأخيرة ؟

- هل لأن أعوام التسعينات هى فى نفس الوقت أعوام العقد الأخير من
القرن الأخير فى الألفية الميلادية الثانية ؟

رغم الأهمية « النفسية » الكبيرة لإعتبار هذه الأعوام ملائمة للتقويم
والحساب النهائى الخاصين برحلة البشرية عبر ألفية طويلة ، وقرن هادر لم
تعش مثله من قبل ، إلا أن هذا التفسير لا يكفى . صحيح أن تراكم أحداث
القرن العشرين قد أفرز هذه الأعوام غير المسبوقة التى صار كل منها يحمل من
الأحداث ما لم يكن من المتوقع حدوثه إلا فى حقبة كاملة ، إلا أن ظهور « العام
- الحقبة » year - era فى تاريخ البشرية لا علاقة له بالبعد النفسى لنهايات
العقود والقرون ، لكن علاقته المؤكدة كانت مرتبطة بنضج الأحداث التى أدت
إلى نهايات أخرى . أحدثت هذا التغير الكيفى الكبير فى عالمنا ، الذى
صاحب نهايات القرن .

- ما هى هذه النهايات ؟ وكيف كثفت « الزمن التاريخى » فى هذه المرحلة

بالذات ، بحيث كادت كل الأعوام أن تكون أحقاباً ؟ إن « قراءة » النهايات المذكورة ، تعد أمراً بالغ الأهمية ، ونحن نودع عاماً ونستقبل آخراً من هذه الأعوام - الأحقاب .

في مقال هام لهنرى جرنوالد ، نشرته مجلة « تايم » في ٣٠ مارس ١٩٩٢ ، تحت عنوان : « العام ٢٠٠٠ - هل هو نهاية أم مجرد بداية ؟ » يعدد جرنوالد النهايات الثلاثة التالية ، مرفقاً إياها بالبدايات المحتملة التى تليها :

● أولاً : قد شهدنا نهاية الشيوعية ، وبداية التكيف مع ما سمي « بالنظام العالمى الجديد » . وإذ يقرر الكاتب أن نهاية الشيوعية ، رغم محاولة الصين أن تتفادى السقوط ، قد باتت مؤكدة ، يذكر أن سقوطها يدفع للتساؤل عن كيفية التعايش دون هذا « الألم » الذى تعودنا عليه . لقد تركت الشيوعية فراغاً مثل الذى يحدثه بتر أحد الأطراف ، حيث يستمر الشعور به لفترة - هل يرى جرنوالد أن الشيوعية ما زالت في عقل البشرية ، رغم أنها تكاد تفارق الجسد ؟ عموماً ، يرى الكاتب من المناسب أن يتلو بعض « الترانيم الرأسالية » أمام نعش الشيوعية ، فيؤكد أن خطورتها لم تكن وهماً أو سراباً ، مشيراً إلى أن صلابة الغرب وترسانة السلاح الأمريكية بالذات من ناحية ، وقصورها الخاص من ناحية أخرى* ، أديا إلى هذا الانهيار . بعد هذا « النصر بلا حرب » على حد قول نيكسون ، يبدأ جرنوالد في التنظير للطريق الذى يمكن به المحافظة

* يقصد البعض بذلك عدم استطاعة السوفييت ملاحقة التكاليف الباهظة لحرب النجوم ، لكن هذا الرأى ليس قطعياً ، فهذه التكاليف باهظة بالنسبة لأمريكا أيضاً . وأظن أن تخلف « تكنولوجيا الرفاهية » ، التى تؤثر على نوعية حياة الأفراد - في ظل التطلع للنموذج الأمريكى ، لعبت دوراً هاماً في هذا الانهيار .

على إنتصار الرأسمالية والديمقراطية : يرى أن الشيوعية قد ظهرت كرد فعل لقسوة البدايات الأولى للثورة الصناعية التى سبقت منافعتها ، وأن التناقض الرئيسى لم يكن اقتصادياً بل نفسياً فى الأساس ، نتيجة الرغبة فى الجمع بين الإنطلاق الفردى والتأمين المجتمعى (هل هو تناقض نفسى حقاً ، أم أنه إقتصادى إجتماعى ؟) . والواقع أنه محق تماماً فى الاعتراف بعدم زوال هذا التناقض ، ولعل نتائج الإنتخابات الامريكية الأخيرة تؤكد ذلك ، فقد فاز كليتون الذى الملح بأن الدولة يجب أن تقترب أكثر من نموذج الصالح العام . أخيراً ، يطالب الكاتب أمريكا بالتنبه إلى انتقال مركز الثقل الإقتصادى إلى آسيا ، ويطالب بالمشاركة فى الوضع الجديد باعتبارها من قوى الباسيفيك ، ويقرر أن ذلك لن يحدث بالتمسك بمفهوم قومى للإقتصاد . وهذا ينقلنا إلى الحديث عن النهاية الثانية فى عرض جرنوالد .

● ثانياً : نهاية القومية ، كما يراها جرنوالد ، وضرورة البحث عن ترتيبات دولية جديدة . قد نتفق مع الكاتب فى أن مفهوم القومية المتميز عن الوطنية ، وهو غريب بالأساس ، حديث نسبياً . وقد ظنت البشرية بعد الحربين العالميتين أنها على وشك الاقتراب من شكل من أشكال الحكومة العالمية ، لكن القومية أثبتت أنها أقوى من المتوقع ، وتكاثرت على أساسها العديد من الدول الكبيرة والصغيرة ، حتى صار هنالك أكثر من ١٧٠ دولة (ذات سيادة) ، تتحدث أربعة آلاف لغة . إن المفهوم العرقى للقومية يظلم الشكل الثقافى الذى قدمت به العروبة فى كثير من الأحيان ، وهو أمر يجب أن يذكر رغم أزمته ، لأن الإطار الثقافى يمكن أن يضم الأقليات العرقية والعقائدية ،

ويمثل حلاً لكثير من مشاكل عالم اليوم . إن الحديث عن نهاية القومية مع ما نشاهده من تفكك للدول الضعيفة تحت رايات قومية في كثير من الأحيان ، وتوحد للدول الأقوى تحت رايات تتجاوز القومية ، يجعلنا نناقش قضايا التخلف والتقدم الكامنة وراء المسلكين . أما الترتيبات الدولية الجديدة فتثير الحيرة ، وتقوم على تغيير كبير في (مفهوم السيادة) ، التي وضعناها بين قوسين . في « تقويم العالم » The World Almanac لعام ١٩٩٣ ، جاء ضمن الإقتباسات المختارة ، صرخة لعجوز من سرايفو إسمها جميلة مردان ، تختبئ في ظروف غير ملائمة خوفاً من الموت والقصف ، تقول فيها : « قولوا لبوش أن يأتي بسرعة . . . قولوا له أن يأتي ليدافع عنا من فضلكم » ، وبجانب ما تبثه الشبكات الإعلامية من صور وأخبار تظهر أطفال الصومال الجوعى ، وهم يلوحون للجنود الأمريكيين ، ويغنون قائلين : فيفا أمريكا ، يأتي عنوان تحقيق للنيوزويك (٢١ ديسمبر ٩٢) معبراً عن شعوب أبناء الدولة المنهارة : « إغزونا من فضلكم » !!! إن الدرس المستفاد هنا ليس نهاية القومية أو إستمرارها ، إنه إرتباط التقدم والسيادة بالقبول الديمقراطي بالتعددية بكل أشكالها الثقافية والعرقية والعقائدية . . . ورسم خطط وعلاقات المستقبل على أساسها . . . فهكذا تتوحد أوروبا والأمريكيتين والمجموعة الآسيوية .

● ثالثاً : نهاية مرحلة عدم اليقين ، وبداية عصر من الإيمان . وهنا نؤكد عدم صحة المقولة التي أوردتها جرنوالد على لسان أحد خبراء الإدارة اليابانيين ، حيث ذكر ما نصه : « أن الشعوب لا تريد القومية (كرمز للإنتهاء) ، لكنها

تريد مشاهدة برامج الأقمار الصناعية وإقتناء أجهزة سونى . يبدو فى هذا الكلام خلط كبير بين « رغبة العالم البطيء فى اللحاق بالعالم السريع » على حد قول المفكر المستقبلى ألفين توفلر ، وبين الرغبة التى لا تقل عن ذلك فى البحث عن صيغة للحفاظ على الهوية الثقافية والإنتماء الحضارى . والمهم هنا ، أن الكاتب يعلن فشل « البدع العقائدية » التى تنتشر فى الغرب ، ويؤكد أن العقائد التى تطالب أتباعها باطار واضح ومحدد من الإلتزامات الأخلاقية أظهرت نجاحاً أكبر . لكنه للأسف يجمع بين الإسلام والهندوسية عند الحديث عن العنف والتطرف . ولم يتطرق كثيراً إلى كراهية الأجانب التى تعم أوروبا ، « والنازية الجديدة » التى تحتاج ألمانيا ، التى شبهها كاريكاتير حديث بأنها فرانكشتاين الذى يخرج من نعشه بعد أن تصورنا أننا قضينا على دراكولا (الشيوعية) ودفناه جانبه . وبصرف النظر عن عدم موضوعية الجمع بين الهندوسية والإسلام ، فإن جرنوالد لا يعتقد أننا فى الطريق إلى « دين عالمى » ، ولكن كما يقول هانز كنج « أن الأخلاق يجب أن تعود أمراً مجتمعياً ، وليست مجرد مسألة شخصية » كما نظر إليها طويلاً فى الغرب . ويعيننا هنا فى موضوع التدين ما يروجه البعض من أن الإسلام هو العدو القادم للغرب بعد نهاية الشيوعية ، والغريب أن من بيننا من يتيه فخراً بذلك ويكرره . . . لكن الإسلام لا يعادى إلا من يعاديه .

لقد كان من المفيد ، أن نورد هذه القراءة النقدية المطولة لأفكار جرنوالد ، لأنه يتعرض للتغيرات الهادئة التى تميزت بها السنوات الأخيرة ، ولكونه ينادى منذ مطلع التسعينات بأن يكون القرن القادم هو القرن الأمريكى الثانى ،

باعتبار أن القرن العشرين كان أمريكياً أيضاً . ولذلك فهو يتعرض لأهم التحديات الثقافية الآن : استيعاب المتغيرات وتفتحهم أبعادها المستقبلية ، ومصير القطبية في عالم ما بعد الحرب الباردة . إننا لا يجب أن نكتفى برصد التغيرات الحادثة ، ولكن يجب أن نهتم كما يقول « مات ريدلى » في كتاب الايكونويست لعام ١٩٩٣ بمعدلاتها . ومرة أخرى نقول أن هذه المعدلات هي التي أظهرت منذ ١٩٨٩ تحديدا ما أسميناه بالعام الحقبة . ولم يكن ٩٢ باحداث يوغوسلافيا والصومال المنهاتين وبأبعاد انتخاب كلينتون ومخاض ماسترنيخت إستثناء ، ولن يكون ٩٣ كذلك . أما « أمركة » القرن ففيها جدال كبير ، وصل أحيانا النقيض كما يرى جيفرى روبنسون في كتابه : « نهاية القرن الأمريكي » . ولعله يسطح الأمر بعض الشيء ، عندما يذكر أن خروشوف قال للأمريكيين - وهذا حدث فعلاً : سوف ندفنكم We will bury you ، أما اليابانيون فقد قالوا بهدوء : سوف نشتریکم We will buy you ، وقد أدى حذف حرف ٢ من كلمة واحدة إلى الانتصار الياباني !!* .

إن بصمة الإنجاز الأمريكي في تحديث العالم علمياً وتكنولوجيا لا تنكر ، ولعلها حصيلة « قوة المحجن » لكل ممثلي البشرية من المهاجرين في البوتقة الكبيرة . لكن ذلك لا يعنى أمركة القرون .

إن للأمريكا مشاكلها الجمة ، التي تعترف بها بأكثر مما يعترف غيرها بمشاكله . وإن الألوان أن تبحث مع غيرها وسائل إقرار صيغة السلام

* نوحى بعض الانتقادات ، لمصحح يد ، التصحیح بالنسبة للانتهار باليابان . تساء إلى أنها تعتمد على التقنيّة أكثر من الابتكار . وتعاني بشكل متزايد من أوجه القصور في النموذج الأميكي . وإن ذلك شذوذ قديم غير القابل للإنتشار ، لطبيعتها الخاصة .

البشرى PAX HUMANA ، بدلاً من السلام الأمريكي PAX AMERICANA . وإذا كانت شعوب أوروبا واليابان والصين تسعى للمشاركة في هذا البحث ، فماذا عن العرب ؟ هذا هو السؤال الذى لا يجب أن نختم حديثنا دون التعرض له .

إن الأمة العربية ، كجزء من العالم الإسلامى ، وما يسمى بالعالم الثالث أو الجنوب عموماً ، عليها الكثير مما يجب مواجهته ثقافياً بالدرجة الأولى . إن من أوائل دروس هضم وإستيعاب المتغيرات ، أن المشروع القائم على الحياء الإيجابى قد تجاوزته الأحداث إلى حد كبير . نحن الآن أمام ضرورة القيام بما يمكن تسميته « بالتكيف الإيجابى » POSITIVE ADAPTATION . إن العزلة ، حتى وإن إفترضا أنها أمراً مرغوباً رغم أنها ليست كذلك ، صارت ترفاً غير متاح . كما أن الجمود وإعاقة الإجتهد الرامى إلى التكيف المذكور ، صاراً مدمرين . أليست مصادفة أن يتوافق حديث المفكرين عن «خروج العرب من الأندلس» بمغزاه م عن «خروج العرب من التاريخ» بمغزاه المستقبل المخيف ؟ كيف نمنع إتمام هذا الخروج ، وهو وارد للأسف الشديد ؟ بل وكيف نعيد القدم التى يمكن أن تكون قد خرجت فعلاً؟ هذه هى المشكلة . إن الخروج من التاريخ يعنى عدم المشاركة فى صنع أحداثه ، ولا علاج لهذا التهميش إلا بالمشاركة . وأظننا نتفق أن المشاركة تستدعى تكيفاً معقولاً بين الشركاء . إن برنامج مثل هذا التكيف ، الذى يتجاوز علاقة التابع والمتبوع ، ولذلك نصفه بالإيجابية ، هو التحدى الخاص جداً والهام جداً لأبناء الثقافة العربية الإسلامية . إن النظام العالمى الآتى ليس جديداً فقط ، ولكنه

متجدد . . . والفارق بين . إن التجدد يعنى الإمتلاء بالفرص والمخاطر ، وهو وضع يتيح للجادين فرصة المشاركة فهل يمكن أن نجعل إستجلاء صورة التكيف الإيجابى المطلوبة على قائمة أولويات ٩٣؟؟!! دعونا نبدأ الحوار بطرح عبارة لسكينر أيضاً ، وهى عبارة مثيرة للجدال إلى أقصى حد ، لكننا نرى أننا لو قمنا فيها لاكتشفنا أننا مواجهون بضرورة إتخاذ موقف سليم من مغزاها ، بصرف النظر عما قد يثار من إختلاف أو إتفاق حولها - العبارة تقول : « إن تصميم ثقافة ما يماثل تصميم تجربة » . . . فماذا نقول نحن ؟ المغزى واضح - علينا أن ننظر لمستقبل ثقافتنا ، ونخطط له « بعيون علمية » !!!

ثانياً : متابعات

١١ - نجيب محفوظ :

تحية علمية

١٢ - جوائز نوبل ٩٠ :

والبحث عن مفردات التقدم

١٣ - السر المباح فى « إزهاق » الأرواح

١٤ - الاستعمار الوراثى بين بذور النباتات وبذور البشر !!

١٥ - الزلزال والعلم :

الجيولوجيا الأحيولوجية ... والجيولوجيا المستقبلية !!!

١١ - نجيب محفوظ : تحية علمية

منذ فوز الكاتب الكبير نجيب محفوظ بجائزة نوبل أحاول كمصري عربي تغمره الفرحة والبهجة أن أعبر عن ذلك لكن أهل الفكر والقلم انبروا جميعاً للقيام بهذا الأمر على خير وجه ، فقلت لنفسي بكل القناعة والرضا : هذا فرض كفاية ، ينوب فيه البعض عن الكل ، وزملاء أدينا العظيم وتلاميذه هم أولى الناس بهذه المهمة ، وأجدر من يمثلنا في القيام بها . وبعد ان اقتنعت - وما زلت - بذلك ، سحت لي الفرصة من جديد ولاح الأمل في ان اغرس وردة صغيرة في حديقة الترحيب بفوز الأديب الحبيب بالجائزة ، وبفوز الجائزة بالبراءة من كل الشبهات عندما شرفت باضافة اسمه العملاق إلى قائمتها .

● لقد جاءت هذه الفرصة عندما استمعت إلى أمسية تليفزيونية خصصت للاحتفال بالفوز ، حيث ذكر أحد أدبائنا الأعزاء (الأستاذ صالح مرسى) ما معناه ان كل من جاء بعد نجيب محفوظ من كتاب الرواية قد تلقى منه جيناته الأدبية ، وتأثر بها شأن تأثر كل كائن بالجينات أو الوحدات الوراثية ، التي يتلقاها من أبويه فتحدد خصائصه ، شكراً يا سيدى ، لقد تعرضت في حديثك الممتع « للقيمة عيشى » فاتحت لي فرصة التحية من خلال التعليق العلمى على هذا الحديث . لذلك فليسمح لي القارئ الكريم ان اسميها : تحية علمية .

● لقد انشغل الكثيرون فعلاً بالتفرقة بين التوارث البيولوجى الذى يتم عن طريق انتقال الجينات من جيل إلى آخر ، وهو الذى يتم بالتزاوج العضوى عادة ويميز كل الكائنات الحية بها فى ذلك الإنسان ، وبين التوارث الحضارى (أو قل ان شئت الثقافى) الذى يميز البشر فقط ويتم عن طريق تزاوج الأفكار والعادات والتقاليد وكل أنماط الحياة المعتمدة على الظروف الاقتصادية والاجتماعية . وإذا كان علم الحياة قد توصل إلى الوحدات شديدة الثبات المسئولة عن التوارث البيولوجى واسماها بالجينات genes ، فإن التنوع الكبير فى أشكال وأنماط ومعدلات ثبات وتغير وحدات التوارث الحضارى قد اُختر كثيراً تعريفها المحدد ، وإن كان دوكنز فى النصف الثانى من السبعينيات قد اقترح لها اسم الميمات memes (مشتقة من أصل يونانى بمعنى التأثر والتقليد والمحاكاة ، كوسائل للتعليم وانتقال المعارف البشرية من فرد إلى آخر ، ومن جيل إلى آخر) . وليس من المستغرب ان تكون الجينات شديدة الثبات فبثاتها هو الذى يحفظ للإنسان إنسانيته (حفظ النوع) وكذلك ليس من المستغرب ان تضرب الميمات الأرقام القياسية فى المرونة والاستجابة للظروف المتغيرة لأن مرونتها هى التى توفر للإنسان فرصة التقدم الحضارى كنتيجة لتراكم الخبرات وتشعب أوجه المعرفة .

● والآن نعود إلى « السؤال النحية » : ماذا أعطى أدينا الكبير للجميع ؟ الجينات أم الميمات ؟ ان عطاء الجينات محدود بالنسل ، وهو قليل عادة (وإن كانت برامج تنظيم الأسرة ترى غير ذلك !!) أما عطاء الميمات فيمتد ويتنشر ليعم الملايين ، ممن يتأثرون بمبدأ أو فكرة أو نظرية ، إلى آخر الأشكال الأدبية

والفنية والعلمية التى تنعكس فيها الميآت . وهنا يأتى دور العبقرى الذى يستحق التحية والتكریم ، ويتلقى من أجله كل الجوائز ، ونوبل على رأسها . فإذا كان كل منا يتلقى الجينات من الأجيال التى سبقته عن طريق والديه ، وينقلها لأبنائه وان كنا تتساوى جميعاً فى ذلك مهما كانت درجة ثقافتنا (حتى ان الخصوبة البيولوجية قد تكون أحياناً - وأقول أحياناً - متناسبة عكسياً مع الخصوبة الثقافية !!) فان العبقرى يتلقى بمخه ، أعظم جهاز ارسال واستقبال فى الكون كل الميآت الخاصة بالثقافة التى ينتمى اليها ، وكذلك ميآت الثقافات الأخرى التى يطلع عليها ، ليرسل بعد ذلك برنامجه الخاص (أدبا أو فناً أو علماً) الناتج عن هضم وتفكيك وإعادة تركيب بل وخلق مختلف التراكيب العبقرية من الميآت ، فتتأثر جميعاً كمستقبلين ويتأثر تلاميذه وزملاؤه من المبدعين كمستقبلين ومرسلين فى آن واحد . وهكذا خرج كل من جاء بعد نجيب محفوظ من عباءته ، لأنهم تلقوا ميآت أعماله غير المحدودة ، دون حاجة لتلقى جيناته المحدودة على أى حال .

● ومع ذلك فالجينات هى البنية الأساسية والامكانات الكامنة لتوليد الميآت ، وجينات نجيب محفوظ وميآته ان كانت تتبع البشرية كلها فهى بالقطع من هذا الجزء من البشرية الخاص بدوائر الانتماء المصرية والعربية والإسلامية وما نحتفل به حقاً هو « عرش الجينات والميآت » لهذه الدوائر . هذه هى وردتى التى أتمنى غرسها فى الحديقة الدولية للاحتفال به ، و « صباح الورد » يا عمنا العزيز □

١٢ - جوائز نوبل ٩٠

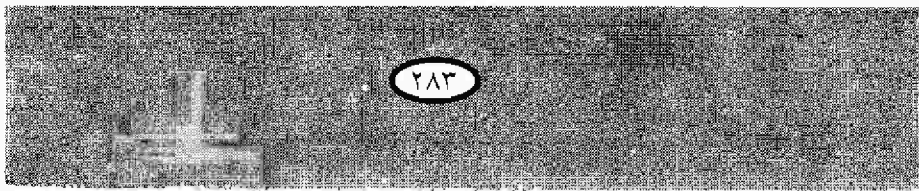
والبحث عن مفردات التقدم*

منذ أن ظهرت نتائج « نوبل ٩٠ » ، تراودنى فكرة جريئة ، توحى بإمكانية البحث عن « مفردات التقدم » ، التى تجمع بشكل أو بآخر بين الفائزين بهذه الجائزة فى مختلف المجالات ، ولا بد من الاعتراف بأن هذه الفكرة تمثل بديلاً متواضعاً لفكرة أكثر جرأة ، راودتنى عندما فاز ضميمنا الحى « نجيب محفوظ » بالجائزة منذ عامين . تمتيت وقتئذ ان يتم البحث عن هذه المفردات وتطويرها بين كل من حصلوا على الجائزة فى المجال الواحد ، وفى مختلف المجالات ، فى دراسة مقارنة تربط الانجازات وطريقة الاعتراف بها ، بظروفها الزمانية والمكانية ، وبعطائها المستقبل الذى ساهم فى تشكيل عالم اليوم ، مع عدم نسيان الكثير من الانجازات التى فاتها قطار نوبل لسبب أو لآخر ، لكنها ساهمت وتساهم فى صنع صورة المستقبل . ورغم كثرة الأدبيات الخاصة بنوبل ، فلا أظن أن دراسة هذا المنطلق قد أجريت . وإذا كان بعضنا يرى عدم واقعية الربط بين الأدب والسياسة والاقتصاد من ناحية ، وبين الطب والكيمياء والطبيعة من ناحية أخرى ، فإننا نذكره بما قاله أوكتافيوباث ،

* أقوم الآن بعمل مماثل بالنسبة للمستين التاليتين ، مع محاولة وضع النتائج وسط فترة زمنية أكبر ، وأرجو أن تظهر الدراسة فى الجزء الرابع من السلسلة .

عن « لا واقعية المنظور إليه ، التي قد تؤدي إلى واقعية النظرة » ، ونستسمحه في بعض الصبر حتى يتم قراءة المقال ، ونؤكد له ان قناعتنا بان كل منجزات الفنون والعلوم الطبيعية والانسانية ما هي إلا نشاط العقل البشرى في مرحلة معينة من مراحل بنائه للحضارة وهندسة المستقبل ، لا تجعلنا نتصور إنعدام تمايزها ، ونرى أن المشترك الذى نبحث عنه ، يأتي من تكاملها وليس من تطابقها . ولعل العبارة الشهيرة لاينشتين ، التي تذكر أن « علماء الطبيعة رغم كونهم ليسوا سياسيين ، إلا أنهم يعرفون بعض ما لا يعرفه السياسيون » . تعنى - رغم ما فيها تبسيط خطير - هذا المعنى بالضبط ، خصوصاً عندما تقودنا المعارف المختلفة إلى مفردات متشابهة « وهذا ما يحاول أن يستعرضه هذا المقال بالنسبة لجوائز ٩٠ » .

● إن نتائج العام المذكور تعطى فرصة ذهبية لرصد الظاهرة المطلوبة ، بشكل قد لا يتوافر إلا عند تحليل نتائج العديد من السنوات الأخرى ، فالتحليل المتفحص لمضمون الانجازات الخاصة بأصحابها يجعلنا ندرك ان قائمة « مفردات التقدم » ، في هذه الحقبة المتميزة من تاريخ البشر ، تصدرها نزعات : « إعادة البناء / الاعتماد المتبادل / الكوكبية / تفسير الفجوة بين النظرية والتطبيق » ومن الطبيعى أن تعبر هذه المفردات عن نفسها بالشكل الملائم في كل مجال من المجالات ، وأظننا لا نحتاج إلى تأكيد ان إرباط هذه المفردات بالتقدم يفترض ضمناً سلامة توظيفها المجتمعى . فلا محل ولا معنى للحديث عن التقدم دون ذلك . والآن ، دعونا نختبر الفكرة المطروحة ، من خلال رحلة ذهنية قصيرة مع الجوائز وإنجازات أصحابها :



- من المنطقي أن نبدأ « بجورباتشوف » ، الذى تتكثف فى أقواله وفى الأهداف المعلنة لأفعاله ، هذه المفردات المقترحة . وسواء عدّه البعض مستقبلياً فعالاً فى سيناريوهات القمم ، أو مسيحاً دجالاً فى لعبة الأمم ، فقد أحدث من التغييرات غير الارتجاعية الشئ الكثير ، ولهذا إستحق الجائزة .

- ننتقل بعد ذلك إلى الشاعر والناقد المكسيكى « أوكتافيوباث » ، الذى لم يندفع إلى رفض مراهق للثقافة الغربية حتى النهاية ، بل أدرك الاعتماد المتبادل بين مختلف أجزاء العالم وثقافاتهما ، ودعا إلى إعادة بناء وطنه على أساس هذا المفهوم الكوكبى ، ومارس الالتحام بالواقع السياسى ، والتطور الفكرى بناء على معطياته الهادرة ، وإنعكس كل ذلك على إنتاجه الذى أهله للجائزة .

- بعد الحديث عن جائزتى السلام والأدب ، ننتقل إلى دائرة أكثر تخصصاً لتحدث عن جائزة الاقتصاد ، التى منحت للأمريكيين « هارى ماركوفتز ووليم شارب ومرتون ميللر » لقد قدم أولهم فكرة أفضلية تعامل المستثمرين فى حزمة متنوعة من المنتجات . وطبق الآخرون فكرته فى الصناعات والشركات ، بصورة أكدت فائدة الاعتماد المتبادل بين المنتجات فى تقليل المخاطرة الاقتصادية . ولا شك أن بنى الشركات عابرة القوميات لهذا المنطلق يؤكد كوكبيتته ، ودوره فى إعادة بناء مختلف الأنشطة الاقتصادية .

- وللانتقال من الحديث عن أنشطة الإنسان السياسية والفنية والاقتصادية ، إلى الحديث عن العلوم الطبيعية ، تعالوا لا نبتعد عنه كثيراً ، ونبدأ بالحديث عن جائزة الطب باعتبار أن موضوعه أيضاً هو الإنسان . لقد منحت هذه

الجائزة لرائدى زراعة الأعضاء الأمريكیین « جوزیف مورای وإ . دونال توماس » . وهذا أمر غیر إعتیادی ، فالجائزة تعطى عادة للبحوث الطبیة الأساسیة كإكتشاف مادة الوراثة وطبیعة نشاطها ، لكن الفائدة التطبیقیة القصوى لاستخدام العدید من المعارف الأساسیة فى تقنیات نقل وزراعة الأعضاء ، التى أنقذت وتنقذ آلاف البشر ، كسر الحاجزین الأساسی والتطبیقى ، وأهل رائدى هذه التقنیات - التى تقوم على إمكانية الاعتماد المتبادل بین البشر ، وإعادة البناء التصحیحیة لأجسادهم - للحصول على تقدير لجنة نوبل .

- وننتقل من أجساد البشر إلى كیمیاء خلاياهم ، لنذكر أن جائزة الكیمیاء كانت من نصیب أحد رواد الكیمیاء التخلیقیة ، وهو الأمريكى الآتى من بلاد الشام « الیاس جیمس كورى » ، الذى خلق مع معاونیه قرابة مائة عقار ومادة طبیعیة ، والذى یستخدم طريقة تفكیک المركب المطلوب ، وإعادة البناء المعملی بناء على خطة شبهها البعض بعملیة « لعب الشطرنج » مع الطبیعة . إن قائمة المركبات التى خَلَقَهَا تؤكد الاعتماد المتبادل بین الطب الشعبى لمختلف ثقافات الكوكب ، وعلم وفن تخلیق المركبات العضویة الحیویة .

- وأخیراً ، نَذُلُّفُ إلى أعماق المادة ، التى یتشكل منها كل ما فى الكوكب من جمادات وكائنات حیة ، بما فى ذلك المرحوم نوبل وكل من یحصلون على جوائزه !!! لقد كانت جائزة نوبل فى الفیزیاء من نصیب من أثبتوا أن البروتونات والنیوترونات المكونة لنواة الذرة ، تتكون بدورها من عدد من الجسیمات الأساسیة تسمى الكواركات . لقد أكد الأمريکیان « جیروم

فريدمان وهنرى كندل « والكندى « ريتشارد تيلور » تجربياً نظرية عالم الطبيعة الأمريكى موراي جولدمان ، التى قالت بوجود الكواركات . وبالتالى تتم إعادة بناء نموذج الذرة ، على أساس الاعتماد المتبادل بين عدد أكبر من أشكال الجسيمات .

● وفى نهاية هذه الرحلة ، من المفيد أن نكرر أهمية سلامة التوظيف المجتمعى لكل منجزات الفكر البشرى ، وما تفرزه من مفردات قابلة لاحتداث التقدم . فالفكر الجديد لجورباتشوف مثلاً ، لا يغفر له إستمرار المطالبة بمزيد من السلطة ، بما قد يحوله كما يرى البعض إلى ديمقراطور (كلمة مؤلفه من ديموقراطى وديكتاتور) وهى حالة لا يمكن لصاحبها أن يتمتع بالاتزان أو يتلافى السقوط!!! وكوكبية أوكتافيو باث الثقافية ، يجب ان تواجه بحزم كلا من الذوبان والعزلة . ونظريات التنوع الاقتصادى لا تعفى الشركات عابرة القوميات من كثير من ممارساتها الفجة . وإمكانية زراعة الأعضاء ونقلها بين كل سكان الكوكب ، لا تمنعنا من إدانة تحول سوق تجارة الأعضاء البشرية إلى سوق كوكبية . تستخدم فيها أحدث تقنيات المعلوماتية وثورة الاتصالات لتحويل أجساد فقراء الكوكب إلى قطع غيار لأغنيائه . وختاماً ، إذ نحى أهل القمة من أبطال نوبل ، ونرجو أن نعمل جميعاً على أن يزيد معدل الأسماء العربية والإسلامية فى قوائمهم ، أود ألا ننسى إنجازات « أبطال ما قبل نوبل » فى مختلف المجالات . وبالمناسبة ، فإن ذكر الكثير منهم تقتضيه « صلة الرحم » ، رحم الدم أو رحم العقيدة والثقافة ، أو هما معاً!!!

١٣ - السر المباح

في « إزهاق » الأرواح

بات واضحاً ان العالم المتميز سعيد بدير هو الشهيد الأخير في مسلسل الصراع بيننا وبين أعداء تقدمنا ، ولسنا في حاجة إلى أن نذكر بأن كونه الشهيد الأخير ، لا ولن يجعله آخر الشهداء . قد لا يجد البعض فارقاً بين أن يكون هنالك من قتله ، أو من أزهقه حتى دفعه للانتحار ، وقد يتعجب البعض من فتوى الانتحار ، أو « الاستنحار » ، كما يسميها الظرفاء ، التي يجري فيها المرء وسائل الانتحال المختلفة ، من الاختناق بالغاز إلى قطع الشرايين ثم الوثب من الشرفة ، وكلها « مات » بوسيلة قام ليحجب الأخرى . وأخيراً ، قد يرى البعض أن محاولة اخراج القعيد من مسلسل « اغتيال المستقبل العربي » ، لا تنقص من وجوده واستمراريته الكثير . لقد استعرض الصديق يوسف القعيد فقرة صريحة من مذكرات بيجن (الذي أحسبه من أعداء تقدمنا) ، يقول فيها : « حتى وإن وقعت إسرائيل اتفاقية سلام أو أكثر مع دولة عربية أو أكثر ، فإن هذا لا يمكن أن يشغل (إسرائيل) ، عن هدفها الحقيقي ، وهو إنهاء حضارة العرب وإقامة حضارة اليهود بدلاً منها » . لقد أسمى بيجن مذكراته بالتمرد ، لكنني اخترت لها عنواناً تراثياً مع تعديل إحدى كلماته ، فقد مر بصرى منذ سنوات طويلة

بكتاب اسمه « السر المباح في تحضير الأرواح » ، ومن حق بيجن أن يضع اضافته التاريخية بأن محل « الإزهاق » محل « التحضير » .

وسر الإزهاق مباح . . . مباح . . . مباح ، حتى ولو قيد الأمر المرة تلو المرة ضد مجهول .

● والحقيقة ان محاولات « اغتيال المستقبل العربي » تتم على مستويات كثيرة ، وتتوافق فيها مصالح قوم بيجن ، مع مصالح أقوام أخرى ، أكثر مما تختلف* . فإذا كان قوم بيجن يريدونه صراحة صراعاً تصفويّاً (إما نحن وإما هم) ، فإن الأقوام الأخرى تؤكد - بالقول دون الفعل - ضرورة أن يكون صراعاً حضارياً (ان تعايش وتنافس نحن وهم) . وإذا ما نظرنا إلى الوسائل الفعالة لادراك النجاح في هذا الصراع الحضارى ، نجدها تركز لدينا تحت وطأة الاختراق والتخلف بشكل ينذر بأشد الأخطار على الحاضر والمستقبل معاً .

ومن المؤسف ان الكثير من العوامل الداخلية تتضافر مع العوامل الخارجية ، لتكريس هذا الوضع . ان واقع « الغفلة والاستغفال » ، الذى سمح طويلاً بالاختراق ، ولم يفرز الا التخلف ، قد أثر بشدة على مفاتيح التغيير والتقدم التى تفتح أبواب المستقبل الأفضل ، فتضاءلت كفاءتها وتآكلت أسنانها . هذه المفاتيح تتمثل في ثنائيات ثلاثة : التربية والتعليم ، العلم والتكنولوجيا ، الثقافة والاعلام . والحديث يمكن أن يمتد بنا كثيراً ،

* ذكر طبعاً في تفسير الحادث محاولة الحصول على سر تكنولوجيا هام خاص بالاتصالات في الفضاء ؛ وفي سبيل ذلك قد تتنافس وقد تتعاون أجهزة المخابرات ، وشركات عابرة القوميات !!!

لنتناول دور هذه الثنائيات المحورى وترباطها العضوى ، وهو حديث مهم ، نرجو أن يدور حوله حوار مثمر .

وسنكتفى هنا بالتعليق الموجز على دور الاختراق والتخلف في ثنائية العلم والتكنولوجيا ، وهى الثنائية التى تتعلق بشكل مباشر « بالوقائع الغريبة (لوفاة) سعيد أبى النحس المتشائل » ، وهى القصة التى تختلف تماماً عن قصة الكاتب الفلسطينى أميل حبيبى التى تحمل الاسم نفسه ، مع ابدال الاختفاء بالوفاة ، ومع تذكر ان بطل قصتنا الحقيقية لم يتحل على ما أعتقد « بفضيلة » التكيف السلبي مع الأعداء ، كما فعل بطل اميل حبيبى فى هذه القصة بالذات . ولا أشك لحظة ، فى أن أرضنا المحتلة بها عشرات الألوف من أمثال سعيدنا الحقيقى فى إخلاصه ، وأن حزنهم عليه لا يقل عن حزن أى منا ، لأنه جزء من الحزن العربى الكبير ، واطمئنهم أن نحسه قد انتهى بسعادة الشهادة .

نعود لواقع العلم والتكنولوجيا فى الوطن العربى ، ونقول أننا قد ساهمنا مع أعدائنا فى بناء « هرم ضخّم لهدر امكانات التقدم العلمى والتكنولوجى » ، يتركز فى قاعدته العريضة اهدار العطاء ، وفى وسطه اهدار الانتماء ، وفى قمته اهدار الدماء ، واليكم البيان : يزخر الوطن العربى بالكفاءات العلمية ، الكفيلة إذا ما أحسن توظيفها والاستفادة القصوى من امكاناتها ، ان تحدث تقدماً نوعياً فى كل مجالات حياتنا ، لكن غياب السياسات العلمية الطموحة ، وافتقاد الدعم الحقيقى الكافى لتحقيقها ، والارتكاز إلى استيراد التكنولوجيا التى تتقدم بسرعة بطريقة تسليم المفتاح ، وتغلغل الانبهار بالآخر على حساب الذات ، كل ذلك أدى إلى اعتبار العلم والتكنولوجيا بضاعة مستوردة ، وشوّه

وظيفتها الاجتماعية في الوطن العربي ، وأخلّ بمنظومة « العلم والتكنولوجيا والتنمية » في مختلف بلدانه ، مما حول الجزء الأكبر من الطاقات العلمية لأبنائه إلى « ديكور » ، دون مشاركة فعلية في صنع المستقبل . هكذا تضاعف نصيبنا من النشر العلمي والابتكار التكنولوجي ، وشعر الكثيرون بعدم القدرة على تحقيق ذواتهم داخل وطنهم ، وهذا ما أسميه « إهدار العطاء » .

تلقت الدول المتقدمة الطيور التي هاجرت هرباً من الاحباط ، وأمدتها بكل الامكانيات التي تحتاجها للبحث والابتكار ، واندجحت نسبة لا يستهان بها في الحياة الجديدة ، وهذا أمر طبيعي لا يستوجب النقد ، لكنه يؤثر حتماً على شدة الانتماء للوطن ، خصوصاً إذا ما تزوج المرء من دولة المهجر ، ويحضرني هنا عدد العلماء والفنيين المهاجرين من الوطن العربي ، الذي ذكر الدكتور بهاء الدين فايز ، مدير المركز القومي المصري للبحوث ونائب رئيس أكاديمية العلم والتكنولوجيا سابقاً ، أنه يبلغ عشرة آلاف فرد سنوياً ، واستنتج بالتالي أن الوطن العربي قد فقد ربع مليون متخصص في مختلف فروع العلم والتكنولوجيا في غضون ربع قرن فقط . أما المردود الذي عاد على هذه الدول من هجرة علمائنا ، فلا بد وأن يفوق ديوننا بكثير .

دليل على ذلك ، ما ذكره الأستاذ ششتنين في دراسة عن النظام الاقتصادي العالمي الجديد ، حيث يقرر أن مردود نزيف الأدمغة من العالم الثالث ، أو ما يسمى أحياناً بالنقل العكسي للتكنولوجيا على شكل عقول تقوم بابتكارها وتحديثها ، قد عاد على الولايات المتحدة « وحدها » بما يزيد على ترليون (ألف مليار) دولار ، أو ما يقرب من حجم جميع ديون العالم الثالث ،

تصوروا* . والآن ، ألتسم معى فى أن فقدان هؤلاء العلماء ، وذوبان الكثير منهم فى غير أوطانهم يعد « اهداراً للانتباء » . هذا هو وسط الهرم ، هرم الهدر الكئيب ، فمن يصل إلى قمته المحفوفة بالمخاطر ؟

نبوغ العربى فى غير دياره ليس أمراً نادراً ، وفى بعض المجالات الحيوية ، التى تتعلق بالتقنيات الحديثة المؤثرة على القدرات العسكرية والانتاجية ، يكون هذا النبوع محسوباً عليه ، حيث تخزن انجازاته وحركاته وسكناته فى ذاكرة أكثر من كمبيوتر ، لا أشك فى أن الاتصال بينها غير معدوم . فإذا ما أثبت تحليل البيانات انه « ولد طيب good guy » ، فانه ينضم إلى غيره من الطيبين فى دائرة « اهدار الانتباء » ، ويمكن أن يستخدم أصله العربى فى أغراض سياسية أو اقتصادية تتعلق بمجال تخصصه ، ولا بأس من « تلميعه » قبل ذلك إذا لزم الأمر** . أما إذا كان ممن يحنون إلى الجذور ، وأراد أن يخدم الوطن الأم وهو فى أرض المهجر ، أو أراد أن يعود إلى الوطن ليشارك بجهده وتميزه فى معركته الممتدة ، فلا علاج لحالته إلا اهدار الدماء أو « الاستنحار » ، عفوياً يا سعيد ، أنا لا أهزل . لكنك عربى ، تعرف حكمة العرب : شر البلية ما يضحك .

* كان بودى أن يورد المؤلف طريقة حسابه هذه المعلومة الهامة ، خصوصاً أن البعض قد يرى صعوبة تجريدها من الموقف الايديولوجى ، حيث صدر الكتاب فى روسيا ما قبل السقوط .

** حتى لا يساء فهمى ، فهناك عشرات الأمثلة الممتازة لعلماء تمكنوا من المحافظة على الانتباءين . تكثر هذه الأمثلة فى المجال الطبى بالذات (الدكاترة محمدى يعقوب ، زهنى فراج ، ناجى نجيب . . . إلخ) . ولا أنسى أن ما كتبه د . فاروق الباز عن الزلزال بصيغة (نحن) ، جعلنى صادقاً أشعر أنه عاش معنا تماماً خطوات الخطر . هذه الأمثلة ليست على سبيل الحصر ، كما أنه لا يحق لأحد أن يحكم على إنتباء الآخرين ، ولكن من الواجب إزالة اللبس .

والآن ما الحل هل سنترك المستقبل العلمى العربى لهذا الهدر المتزايد ؟ لا قدر الله . ولكن ، من أين نبدأ الاصلاح ؟ نحن نحتاج ، ولفترة قادمة غير قصيرة ، إلى أن ندرس ونستوعب علوم وتقنيات العالم المتقدم . ولذلك ، علينا أن نصحح سياساتنا العلمية والتكنولوجية ، قطرياً وإقليمياً وعربياً ، من منطلق التكامل والتنسيق ، بحيث نوفر للوطن العربى فى أقل فترة ممكنة « الكتلة الحدية » من ذوى التخصصات النادرة ، التى تلزمه لدفع مسيرة العلم والتكنولوجيا فى أرجائه . وعلينا أن نوفر لأفرادها الحماية الأمنية اللازمة ، خلال تواجدهم بالخارج ، وبعد عودتهم إلى أرض الوطن ، وذلك من خلال جهاز قومى للأمن العلمى . « والأهم من ذلك ، أن يؤدى تصحيح السياسات إلى رفع الغبن والتجاهل عن قاعدة العطاء العلمى فى الداخل ، واطلاق طاقاتها الكبيرة المتكيفة مع كل مصاعب الواقع ، والمستعدة لمواجهةها وحلها . بذلك سيذهب أبناء الوطن العربى « لطلب العلم ولو فى الصين » ، وكلهم أمل فى التفوق والنبوغ ، ليعودوا مسرعين إلى قاعدتهم الصلبة ، ليمارسوا حقهم البشرى فى تحقيق الذات ، بالأخذ والعطاء ، وبالارتقاء بوطنهم الحبيب . ان القتلة والمأجورين يقتلون الأفراد ، لكنهم لا يستطيعون قتل الشعوب ، وعلى شعبنا العربى أن يتحول إلى « مولد ومستوعب » للعلم والتكنولوجيا ، وتاريخ الماضى يثبتنا بأن هذا ليس بجديد عليه ، فلماذا لا يستعيد هذه القدرة العالية ، التى تعد السبيل الوحيد ليكتب صفحات مشرقة فى « تاريخ المستقبل » ، الخاص به وبالبشرية كلها ؟

١٤ - الاستعمار الوراثن ببن بذور النباتات وبذور البشر !!!

جاهدت نفسى كثيراً حتى تهدأ ردود الفعل الخاصة بقصة الانسان والكلب* ، التى نشر خبر عنها فى « البيان » بتاريخ ٣٠ / ٩ / ١٩٨٩ نقلاً عن جريدة إنجليزية (ساندى سبورت ، على ما أذكر) ، أعقبه تحليل علمى رصين بتاريخ ٤ / ١٠ / ١٩٨٩ ، وهذا موقف تنويرى صائب لمواجهة الأخبار ومتابعتها دون التسليم بها أو الاستسلام لها .

والآن اسمحوا لى أن أسرد لكم القصة « بمنظور مختلف » . ولقد اعتمدت فى إعادة تركيب القصة على مجموعة عناصر هى : انطباعى الأول عن صورة الطفل - اسم البلد الذى حدثت فيه الحالة (فنزويلا) - ما يحدث فى مجال الهندسة الوراثية التجارية بين الشمال والجنوب - وقبل كل ذلك ، قصة أخرى حدثت فى أواخر السبعينات ، واعترف بأنها جعلتني أشعر بالغفلة والاحباط بصورة تشبه ما شعر به أخونا « الصعيدى » الطيب ، الذى جاء ليستثمر

* لقد إختفت القصة سريعاً فى بلدها « بالسكته الصحفية » ، وإن إستمر رصدها فى الأماكن الأخرى . وقد نبهنى صديقى الأستاذ / سامى خشبة ، من واقع خبرته الصحفية الطويلة فى تلقى الأخبار وتحليلها وتتبعها ، أن هذه الأمور تحدث كثيراً ، ولا تخلو من مغزى .

أمواله في القاهرة ، فباعوا له الترام ، الذى لم نعد نشاهده الا في الأفلام العربية القديمة . وبعد أن منى النفس بحصيلة يومية كبيرة من بيع تذاكره للآلاف المؤلفه من الركاب ، اكتشف الخديعة . لقد استغل البعض حادثة « النصب » البسيطة التى تحدث في كل مكان ، ونسجوا على منوالها ، عدداً خرافياً من النكات عن أبناء جنوب مصر ، وهذه قصة أخرى قد تنبهنا لها أخيراً لما قد يكون فيها من إغراض . لكن الأهم ، هو محاولة بيع « ترام الديون والتخلف التكنولوجى » ، لدول العالم الثالث ، وهذا يقودنى إلى أن أبدأ الموضوع بسرد القصة القديمة .

في أواخر السبعينات ، أرادت إحدى دور النشر الأجنبية أن تعرف رد فعل القراء حول تطبيق منجزات « ثورة التكاثر » على البشر . وهذا أمر محمود ، فالتساهل في تطبيق منجزات البيولوجيا الحديثة ، في مجالى التكاثر والهندسة الوراثية ، يمكن أن يودى إلى أoxم العواقب الاجتماعية ، إذا ما طبق على الإنسان دون اتفاق كامل حول ما يصح وما لا يصح . بل ان التطبيق على الكائنات الأخرى يجب ألا يتم جزافاً ، وذلك حتى نضمن أن تنعم البشرية بالجانب المضىء من الانجازات العلمية والتقنية ، وألا تعاني بقدر المستطاع من الآثار السلبية المحتملة . نعود إلى ما فعلته الصحيفة المذكورة ، أن أحد المليونيرات قد استأجر عدداً من العلماء لينسخوا من احدى خلايا جسمه صورة أخرى منه ، دون قران أو تزواج ونشرت القصة في كتاب مشهور سمي « على صورته » . هذه الطريقة التى تسمح بالنسخ « كلوننج » تمت في النباتات في أوائل الستينات ، وفي الضفادع أوائل السبعينات ، وفي الفئران

أوائل الثمانينات ، ولنا أن نستنتج من عليه الدور في أوائل التسعينات ؟ وتمم الطريقة بأخذ النواة ، التي تحتوى على محددات التركيب الوراثي للفرد من خلية جسمه ، ووضعها في بويضة أنثى أزيلت نواتها الخاصة من قبل ، فيصير الناتج مثل الخلية الجنينية الأولى ، التي أنتت به إلى الدنيا عند تزاوج والديه . وعند نقل هذه الخلية الجنينية إلى رحم الأنثى ، تدخل في مراحل النمو العادية ، ويحمل الطفل الناتج تركيب الفرد الواهب للنواة ، ويصغره بما انقضى من عمره ، أى أنه يكون بمثابة امتداده الوراثي . وهذا طبعاً بخلاف حالة التوائم ، التي تولد في وقت واحد ، وتنتج عن انقسام الخلية الجنينية إلى خليتين . لقد أنتت هذه القصة « الملفقة » التي لم تحدث أصلاً بردود أفعال كبيرة ، أغلبها رافض بالطبع . وتحمست مع المتحمسين في رفضهم القاطع ، وعندما نشرت الحقيقة بعد ذلك أحسست بشعور صاحبنا الطيب ، الذي اشترى الترام ، وذلك بسبب احساسى بالخديعة رغم تمسكى بالرفض ، ولكونى غير مستعد لشراء الترام مرة أخرى ، فقد تعاملت مع قصة الانسان الكلب بحذر .

هذا عن القصة القديمة ، فماذا عن بقية العناصر التي حكمت معالجتي لهذا الموضوع ؟

إننى لا أعفى الصورة المنشورة من احتمال اضافة الرتوش والتلفيق ، لاحداث مزيد من الاثارة . ان الحالة معروفة وراثياً ، وقد شرحها الدكتور إبراهيم كلدارى ، المدرس بكلية الطب بجامعة الامارات بوضوح ، في عدد « البيان » المذكور سابقاً ، وقد كانت توصف هى وغيرها من الحالات ، قبل

اكتشاف الأساس الوراثي الخلوى بالارتداد إلى الحيوانية (أتايزم) ، لكن
العمد إلى الاثارة ، بما يحتمل من تركيب مصطنع ورتوش فى الصورة ، ثم ما
ذكر عن المركز الذى يضع على الحائط صورة هتلر والصليب المعقوف (!!!) ،
وتفسير الأمر على انه تلاعب بالجينات وتهجين بين الكائنات ، رغم أنه حالة
معروفة لا تخفى على أساتذة مثل من جاء اسمها بالخبر ، وكل ذلك يوحى
باحتمال الخديعة والاثارة . ولكن ، ما دخل اسم البلد ، وواقع الهندسة
الوراثية التجارية فى الموضوع ؟

عندما يطول الحديث ، ويتعجل « ابن البلد » النتيجة ، يقول لك : هات
من الآخر . اسمحوالى أن أطيعه - فهو الجدد والأب والأخ الأكبر - وأبدأ
بذكر واقع الهندسة الوراثية التجارية . تحت عنوان « الاستعمار الوراثي » ،
ودون ذكر اسم الكاتب حتى نشكره ، جاء فى مجلة آفاق علمية (يوليو /
أغسطس ٨٩) . قصة تأييد منظمة الأغذية والزراعة (الفاو) ، التابعة للأمم
المتحدة ، لموقف الدول النامية فى حقها الحصول على نتائج أبحاث تطوير
البذور كأحد المنجزات المفيدة التى يمكن أن تتم عن طريق الهندسة الوراثية .

وأصدرت لجنة الموارد الوراثية النباتية مشروع قرار يكرس هذا الحق ،
وذكرت المجلة ان هذا يأتى فى إطار الخلاف الدائر بين مختبرات الدول الصناعية
وحكومات العالم الثالث ، حول تنظيم تجارة البذور المحسنة والمقاومة
للأمراض ، لقد قامت الدول الفقيرة بذلك لأجيال عديدة قبل عصر الهندسة
الوراثية ، وقدمت نتائج جهودها قهراً وطواعية للدول الصناعية ، التى
استخدمت هذا النتائج لإحداث طفرة كبيرة فى تحسينه باستخدام التقانات

الجديدة* . وتقود الولايات المتحدة حملة الدفاع عن موقف مراكز الأبحاث المتقدمة ، واصرارها على احتكار نتائج الأبحاث وبراءات الاختراع ، وبيع كل ذلك كملكية فردية مقابل أرباح مستمرة هائلة ، بينما يطالب المجتمع الدولي بانضمام الولايات المتحدة إلى المعاهدة التي وضعتها الفاو للتعامل الحر للبذور المحسنة ، وأقرتها ١١٦ دولة ، (بينها أغلب الدول الصناعية المتقدمة كفرنسا وألمانيا وانجلترا ، أقول ذلك إبراءاً للذمة) ، وجدير بالذكر ان الدول المتقدمة قد اعتمدت تماماً على الأصول البرية والأجنبية للنباتات ، التي تخطر التعامل الحر فيها بعد هندستها وراثياً (القمح التركي - القطن المكسيكي - البطاطا البيروية . . . إلخ) . ولكن ، ما علاقة بذور النباتات ببذور البشر ؟

إن الأمر ينطبق دائماً - بصورة أو بأخرى - على كل تقانة حديثة ، ذات ربحية كبيرة .

فمن وجهة نظر « حكماء » الشمال ، يجب أن يستمر اعتمادنا عليهم وتبعيتنا لهم ، وإن أدى الأمر إلى خلط الآثار السلبية بالنتائج الإيجابية ، وكأننا لم ولن نتعد سن الرشيد أبداً ، ففي العالم المتقدم ، ترتفع الأصوات أيضاً مخذرة من المخاطر ، لكن التطوير يستمر ، والبيع والشراء يتزايدان والمطلوب أن نقع نحن في مصيدة الرفض الكلي للتقدم العلمي .

وإذا كان اختلاق الأوهام وإطلاق المحاذير ليس سهلاً بالنسبة للبذور المحسنة التي اتخذناها كمجرد مثال للاستعمار الوراثي ، فليتم ذلك باستخدام

* يعد رفض الرئيس بوش التوقيع على إتفاقية « التنوع الحيوي » في قمة ريو (يونيو ٩٢) ، استمراراً لنفس التفكير .

حالة التشوه الخلقي لأحد المواليد* ، ومع خلط الأوراق يمكن ادعاء ان ذلك قد تم بالتلاعب بالجينات ، وهندسة الوراثة بشكل عام ، ولا بأس بعد أن يحدث الأمر أثره السلبي في البلدان المتخلفة علمياً ، ان تكتشف الصحيفة الحقيقة ، حتى لا تفقد مصداقيتها ، مؤكدة انها تحاول التحذير من المخاطر . ولأن الأميركيين يتناقشون حتى الآن في مواضيع أطفال الأنابيب والأمهات البديلة والاجهاض ، وغير ذلك من الأمور التي يجب ان يناقش كل منها على حدة لتقبل ما يلائمنا ونرفض ما لا يتناسب مع عقيدتنا ، فان الحدث يتم في احدى دول العالم الثالث (فنزويلا) ، وتتابعه صحيفة بريطانية ، ويوحى اسم الأم « زورايدا بيريز » الى الكثير ، ولكن ، ألا تدفع هذه القصة بعضنا الى التعجل برفض كل أشكال الهندسة الوراثية ، لأنها تلاعب خطر بالجينات ، رغم ان الأمر لا علاقة له بذلك ؟ وألا تجعل البعض الآخر ممن يتوق الى نعمة البنين أن يفضل السفر لإجراء ذلك في بريطانيا مثلاً ، خوفاً من المخاطر** ؟ ألستم معي ان هنالك احتمالاً لمحاولة « بيع » هذا.

* هنالك احتمال واقعي أن تكون نسبة التشوهات في أطفال الأنابيب ، التي يتم للحصول عليها بإخصاب خارج الرحم ، أعلى من النسبة الطبيعية ، وهذا يفسر ضرورة التأكد من سلامة « الجهاز التناسلي » للجنين المتكون قبل السماح باستمراره . لكن هذا الأمر لا علاقة له بالتلاعب بالجينات .

** لقد نجحت عمليات أطفال الأنابيب وغيرها في عديد من الدول العربية ، ولا شك أن هذا ما يزعج المستشفيات البريطانية التي تعتمد على السياحة العلاجية كثيراً . هذا لا ينسحب طبعاً على عمليات ينصح باجرائها في الخارج لدقتها (كزراعة الكبد مثلاً) وإن كنا نتمنى اكتساب مهاراتها هنا ، بمساعدة أطبائنا الناجحين في البلاد الأجنبية . . وهذا إتجاه يتقدم كثيراً في الوقت الحالي .

الانطباع السلبي للعالم الثالث ؟ أنا لا استبعد ذلك ، لقد آن لأبناء العالم الثالث عموماً ، وللعرب خصوصاً أن يتنبهوا . لقد أضاعت الغفلة وطناً نحاول بجهد جهيد أن نستعيد بعضاً منه ، وأدت التبعية والغفلة الثقافية التكنولوجية والتخلف العلمى إلى أن تتفاعل بشكل خاطئ مع حكايات مثل هذه ، وأن نشترى كل عربات الترام المحالة إلى الاستيداع فى مشارق الأرض ومغاربها .

وبينما يدور حوار أهل الشمال عن مخاطر التقانات الحديثة فى معرض التنوير ، يرسل إلينا الحوار نفسه كوسيلة للتحذير ، حتى نقنع بالشراء منهم واللجوء إليهم* . ولتذكروا أن إسرائيل تباع البذور الهجين - لمن يشتريها منها - بأعلى الأسعار ، دون أن يستطيع اكثارها لأنه لا يمتلك الآباء الداخلة فى تهجينها . وهكذا ، يمكن أن نكتشف علاقات كثيرة بين بذور النباتات وبذور البشر ، وبين بروتوكولات حكماء الشمال وأصفيائهم أصحاب البروتوكولات إياها !!! .

* لست بعيداً عن خطط التعاون الدولى فى مجال التقنيات المتقدمة . واهندسة الوراثة بالذات ، وهى خطط لا مفر منها لكنى أكرر كثيراً إنزعاجى من الضعف الشديد للمكون المصرى فى عملية التمويل (أو حتى إنعدامه) ، وأحس كل الجهود الرامية إلى زيادته . كما أننى لا أشك فى صدق وإخلاص المتعاونين فى المجتمع العلمى المصرى بل والأجنى أيضاً فلاشتغال بالعلم سلوكياته الإنسانية الجنبيلة . لكن هذه العلاقات « الميكرو » ، لا تنفى ما هو معروف ومتداول فى المحافل الدولية عن السياسة « الماكرو » وخلفياتها . ولا شك أن الإنجاز البطئ ، وظهور بعض النتائج « العجيبة » كازدهار زراعة القطن فى إسرائيل مثلاً ، من الأمور التى تسترعى الإنتباه . عموماً ، يجب دراسة واقع ومستقبل التكنولوجيا الحيوية فى الدول النامية بالتفصيل .

وأكرر ان ذلك لا يعنى لهفتنا إلى كل تطبيقات الهندسة الوراثية أو غيرها ،
لكننا نلتهم بشدة للتوظيف الرشيد لكل منجزات العلم والتقانة للخروج من
مأزقنا التنموى ، وتجاوز واقعنا المتخلف ، فى ظل صيغة دولية أكثر عدلاً
وإنصافاً للجنوب ، الذى يمثل وطننا العربى جزءاً منه . ولعل هذا يذكرنا بما
دعونا إليه فى موضع سابق ، من ضرورة توصل البشرية إلى «نظام علمى جديد»
، يتجاوز الحساسيات ويسقط البروتوكولات ، لصالح المستقبل المشترك .

١٥ - الزلزال والعلم :

الجيولوجيا الايديولوجية ... والجيولوجيا المستقبلية !!!

فى عصر الثانى عشر من أكتوبر ١٩٩٢ ، شعر المصريون جميعاً بأن بيوتهم (أوطانهم الصغيرة) تنهار ، ولم يفكر أغلبهم فى كونه زلزال . وهذا شعور يجب أن نقضى عليه ، لأن الوطن الكبير يتكون من ملايين الأوطان الصغيرة ، التى يؤدى الإطمئنان فيها إلى الإطمئنان فيه ، وهو ناجم عن سلبيات متراكمة ، يجب أن تواجه بالطرق العلمية ذات الرؤية المستقبلية ، وليس بالتفسيرات الايديولوجية ذات الرؤية المازوية . وهذا هو موضوع الإنطباعات السريعة ، التى يحتوئها هذا المقال .

● إن الزلزال ، كعبرة طبيعية يجب أن يستفاد منها دينياً أمر متفق عليه . ونحن نأخذ العبرة من أى زلزال يقع فى مختلف البقاع ، وليس عندنا فقط . ونذكر أن الإنسان - الذى خلق فى كبد - مكلف مع فهم هذه العبرة ، بالأخذ بأسباب العلم لمواجهة وتقليل آثارها ما أمكن . وإذا كانت هذه المواجهة تحدث فى اليابان وكاليفورنيا ، فيجب أن تحدث هنا ، لتكون العبرة المستفادة ذات بعد مستقبلى مؤكد . أما أن يفهم البعض منه ، أنه عقاب يشابه فى حيثياته ما ألم بالأمم الغابرة كعاد وثمود وغيرهما ، فهذا حرام . إنه درس لنواجه الإهمال والفساد والتراخى فى تطبيق القوانين ، ولنطبق المبادئ العلمية فى « عمران » بلادنا . . . وليس نقمة على

شعب من أكثر الشعوب الإسلامية . حباً في الله ورسوله ﷺ .

● وللجيولوجيا الإيديولوجية وجه آخر أكثر طرافة ، لأنه ينطلق من مهاجمة مشروعات تنمية سابقة ، دافعت عن نفسها بعد طول المهاجمة ، عندما عانت إفريقيا كلها من الجفاف ولم تشعر به في مصر . أعنى بذلك السد العالى وبحيرته في أسوان . لقد أجمع كل الخبراء الموثوق بهم على أن البحيرة غير مسؤولة ، وأن الطبيعة الجيولوجية للمنطقة ، من قبل البحيرة وبعدها ، هي المتسببة في نوعية الهزات الحادثة هنالك . والحديث عن علاقة البحيرة قديم ، قبل زلزال أكتوبر بمدة طويلة . وعندما قيل منذ سنوات أن أسماكها قد توحشت وزاد حجمها ، لعدم وجود خطة مناسبة لاصطيادها وتسويقها ، ظهرت « نكتة » ذات مغزى تقول : أن هذه الأسماك الكبيرة ، بما تثيره من تيارات مائية قوية في سباحتها وعراكها ، قد تسبب في حدوث الزلازل . لكن زلزال أكتوبر أعطى الفرصة « لنكتة » أخرى ، لا تقل طرافة . فعندما أكد الخبراء براءة البحيرة ، قيل أن آثار ضغط المياه قد تظهر بعد آلاف السنين . . . رغم أن البحيرة قد تردم أصلاً قبل هذه المدة !!! هل تذكر « حكاية جحا » ، عندما راهن على أنه يستطيع أن يعلم حمار الوالى الكلام ؟ قالوا له : لقد هلك ، فلن تستطيع أن تفعل ذلك . لكنه أجاب بذكاء وخفة دم : قائلاً : « خلال هذه السنوات العشر ، قد أموت أو يموت الوالى أو يموت الحمار . ولن أتعرض في كل الأحوال للعقاب » . وها نحن أمام اختبار أكثر أماناً ، بالإدعاء قائم بالنسبة لخطورة هذه البحيرة « الملعونة » الاسم والرسم ، والنتيجة ستظهر بعد ألف أو عدة آلاف من السنين . إن الآثار الجانبية لكل مشروع ضخم يجب أخذها في الاعتبار ، ولكن قد يندس بينها ما هو إيديولوجى غير علمى في طبيعته . . . فاحذروه !!!

● لنندع كل أشكال « الجيولوجيا ايدولوجية » جانباً ، وننتقل إلى ما يبشيره الزلزال من إنطباعات مستقبلية :

- يدفع الزلزال إلى سطح الأحداث أهمية تحديث « البنية العلمية » ، وتطرح تجارب الدول الأكثر تعرضاً لهزات أكبر منه ، والتي تستطيع تقليل الخسائر بمنهج علمي ناجح ، نموذجاً للتنوعية ، يعلمنا كيف نجعل العلم مطلباً مجتمعيّاً ، وكيف نجعل ثقافته . . . ثقافة المستقبل .

- قال لنا الزلزال (حسب تعبير الأستاذ رجب البنا) أن أحزمة الزلازل التي يجب أن تخرج مصر منها فعلاً ، هو أحزمة التخلف القديم : الفقر ، والجهل ، والمرض . حرام أن تبقى مصر العريقة داخل نطاق هذه الأحزمة ، ولا علاج لذلك إلا بأحزمة التقدم : العلم ، والتكنولوجيا ، والتنمية . دائماً أقول ، أن الفقر الحقيقي في عالم اليوم ؛ هو فقر المعارف العلمية ، والجهل المطبق ؛ هو عدم الإلمام بتقنيات الإستفادة منها ، والمرض العضال ؛ هو قصور برامج التنمية الشاملة ، التي توظف المعارف وتطبيقاتها من أجل مستقبل أفضل . ولذلك فإن برنامج الخروج من أحزمة التخلف ، والدخول في أحزمة التقدم المذكورة ، يمثل بحق ركناً هاماً من أركان « الجيولوجيا المستقبلية » ، التي تتعامل مع « مكونات الأمل » في أرض الكنانة .

- كما علمنا الزلزال أن إحتتمالات التعرض للكوارث يجب أن تواجه بسياسيتين علميتين : أحدهما وقائية ، والأخرى علاجية .

- تشير الآثار الإجتماعية الهائلة للحدث ، بأن علينا أن نعتنى بها أسميه « مقياس ريشتر الإجتماعى » ، الذى تمكننا قراءة قياساته بشكل جيد من تلافى الزلازل

الإجتماعية ، بصورة تفوق الزلازل الطبيعية ، التى لم نتمكن من التنبؤ الدقيق بها حتى الآن . هل نقيس بدقة الطاقة المدمرة المتجمعة من جراء البطالة والمخدرات والتفاوت الإجتماعى وسكنى القبور والمناطق العشوائية . . . إلخ ؟

- إذا كنا ندعو الله أن تتوقف توابع زلزال القشرة الأرضية ، فإننا نرجو ألا تتوقف التوابع التى أحدثها في « قشرتنا المخية » ، فجعلتنا نشارك بالمشاركة في المشروع القومى لبناء المدارس . . . نرجو أن تستمر هذه التوابع الدافعة إلى الإيجابية والحراك المجتمعى ، من أجل بناء المستقبل .

- أخيراً ، فإننى أرجو أن يزول تماماً الشعور بأننا نعيش في وطن متصدع . إن أساسنا التاريخى متين ، وبلغة « المعمار » التى علمها لنا الزلزال ،ؤكد أن أعمدتنا الثقافية « العربية الإسلامية » قوية . لكننا نعتز بخطورة شروخ « الكمرات التنموية » ، وبعض الصدا الذى أصاب « تسليحنا الفكرى » نتيجة ضعف الإنجاه والميل إلى التطرف !!! والحل بلغة « ثقافة الزلزال » أيضاً ، يكمن في « المواد الخرسانية الجديدة » التى تعالج مثل هذه الشروخ ، كالديمقراطية الحقيقية ، التى تعد جديدة بالنسبة لمجتمعاتنا على أى حال . علينا أن نكون « خلطتها » المناسبة لنا ، ونستخدمها بلا خوف . . . هذا وإلا !!!

خلاصة

إذا كان عنوان السلسلة ، التي يمثل الكتاب الحالي ثانی اجزائها ، هو : « المستقبل . . . بعیون علمیه » ، فإن ذلك یعنی ضمناً أن یكون للنظرة العلمیه للمستقبل بعداً ثقافیا مؤكداً .
والخلاصة الحالیه ، تحاول باستعراض الخطوط العامة لفصول الكتاب الستة ، توضیح تجربة صاحبه فی التعامل مع « العلم » باعتباره ثقافة المستقبل . . . حیث لا یستند فی ذلك إلى « إشتغاله » بالعلم فقط ، ولكن یستند بدرجة أكبر إلى « إشتغاله » بأهمیته . . . وهو الإنشغال الذی یتمنی أن یشارکه فیه الجمیع .

● إن مفهوم « العلم كثقافة » بالنسبة للكتاب ، يتعدى كونه عنوان الفصل الأول ، وإسم أول مقالاته إنه رسالة هذا الكتاب ، وما قد يكون على شاكلته من كتب . ومن أجل الوصول إليه وترسيخه ، تعالج موضوعات تبسيط العلوم وتعريفها ، والتعرف على الحد الأدنى من « الثقافة التكنولوجية » اللازمة لكل فرد يريد أن يعيش عصره . وفي النهاية ، نطرح أحد الأهداف المستقبلية الهامة ، المتمثلة في الدعوة إلى توفير « الأمن العلمي » . ولأنه كما وصف مراراً ، الأمن اللازم لكل أمن ، فقد أقترح تدارس أبعاده بشكل منهجي سليم ، خصوصاً وأن مفهومه يعد جديداً إلى حد كبير .

● وإذا كان العلم هو ثقافة المستقبل ، فلا بد وأن يكون وضعه محورياً في مشروعنا المستقبل . هذا ما تناقشه الختامية ، التي تشكل الفصل الثاني من الكتاب . في البداية ، كان ولا بد من التعرض للتغيرات التي طرأت على الإنتاج العلمي ، وذكر الخطوط العريضة لمتطلبات تنمية الكوادر البشرية المشتغلة بالعلم في الوطن العربي . نعرض بعد ذلك لفكرة « نهاية اليوتوبيا » ، التي كانت متوقعة بناءً على التقدم العلمي ، وذلك لأخطاء التوظيف

المجتمعى بصورة صراعية بين الايديولوجيات . لذلك ، تطرقنا إلى علاقة العلم بالمجتمع ، ودوره فى تحقيق الأمن التنموى . وإنهى الفصل بالدعوة إلى « نظام علمى جديد » ، يسمح للبشرية كلها بالاستفادة من منجزات العلم وتطبيقاته التكنولوجية ، باعتبار الأولى على الأقل تراثاً بشرياً عاماً والثانية عاملاً حاسماً فى رسم صورة أفضل للمستقبل المشترك الذى ينتظرنا .

● ولأننا كنا أمة لها مستقبل ، توقفت مسيرته منذ مدة طويلة ، فلا بد من البحث عن طريقة « للعودة إلى المستقبل » . إن لغتنا ، تقدم لنا ما لا يوجد فى غيرها ، جذر ثلاثى بسيط ، يحمل الحل الناجح - أسميه بصدق : « جذر الخلاص . هذا الجذر (ع ل م) تشتق منه ثلاثية : العلم - التعليم - الإعلام ، التى تعالجها مقالات الفصل الثالث . فمن صرخة الوعي المطالبة بالإيمان بالعلم ، إلى دراسة أوضاع تدريس العلوم عموماً ، وعلوم المستقبل بالذات فى المدرسة العربية ، إلى التصدى إلى بعض مشاكل التعليم الجامعى كالتمويل وتحديث أشكاله بالتعليم عن بعد ، إلى الحديث المختصر عن البحث العلمى وعلاقته بالتطوير فى المجالات الإنتاجية المختلفة . إنها كلها موضوعات توجد بالضرورة ضمن أى برنامج مقترح للعودة إلى المستقبل !!!

● ولأن التعامل مع العلم ، باعتباره ثقافة المستقبل ، يستلزم ذكر أمثلة محددة ، فقد اخترنا البعد البيئى ، باعتباره أكبر مميز لهذه الثقافة . لتقديم الأمثلة . أوضحنا أولاً كيف تعارض مسار الإقتصاد (الايكونوميا) ومصير البيئة (الايكولوجيا) ، وكيف تشغل البشرية الآن بفك الإشباك بينهما ، مما دفعنا أن نسمى هذا العصر « بعصر الايكو » . وقد تطرق الحديث إلى خطورة

الكيمائيات التى تحدث آثاراً ضارة للجهاز الوراثى بالإنسان وغيره من الكائنات (التلوث الوراثى) ، وللأسلحة البيولوجية التى يمكن أن تزداد خطراً باستخدام تقنيات الهندسة الوراثية . وأخيراً ، تم التعريف بواحد من أهم المشروعات البيئية / المستقبلية التى تجرى الآن ، وهو مشروع المحيط الحيوى II . الذى بنى فى أريزونا لدراسة احتمال سكنى الفضاء لمدة كبيرة ، بالإضافة إلى التعرف على مزيد من الطرق للمحافظة على سلامة البيئة ، وتقدير مصادر تلوثها الطبيعية المحدودة فى هذا الوسط المنعزل .

● ولم يكن ممكناً ألا نتعرض للعلاقة بين الدين والعلم ، باعتبار الأول هو المصدر الرئيسى (أو هكذا يجب أن يكون) لمنظومة القيم فى المجتمعات البشرية عموماً . وفى المجتمعات الإسلامية بالذات . وسلامة العلاقة المذكورة ، تجعل إنتاج العلم وتوظيفه متسقاً مع القيم الدينية السامية ، وهو الأمر الذى تحتاجه البشرية بشدة . بعد أن أدى الانحراف الطويل إلى أن يمتلئ العالم بالرؤوس النووية والبطون الخاوية !!! لم يفتنا التعرض للحوار الدائر الآن حول التغيرات التى تشهد معاً علاقة العلم بالدين نتيجة التقدم العلمى الكبير ، وإن كنا قد إلترزنا بالإطار الإسلامى . لقد إحتوى العرض ثلاثة مقالات ، الأول قد تم عن « القرآن والعلم » . تمت مراجعته فى المقال الثالث ، ضمن العرض الشامل للموقف الحالى . أما المقال الثانى فقد أختص بمعالجة « جديدة » لعلاقة الإسلام بالدراسات المستقبلية . إن هذا الفصل ، الذى يتضمن نقداً ذاتياً لبعض الآراء السابقة للكاتب ، يتضمن فى نفس الوقت دعوة للنقد والمراجعة من القراء .

● أخيراً ، نأتى إلى الإجتهاادات والمتابعات التى جمعت فى الفصل السادس الذى سىمى بحق : صندوق الدنيا . محتويات هذا الفصل تستعصى على محاولة تقديمها فى خلاصة موجزة ، فهى تجمع بين إستخدام معلومة صغيرة كنموذج لعلاقة كبيرة ، وبين رؤية نقدية لما يحدثه العلم من متغيرات ، وبين متابعة العديد من الأخبار المتصلة بالعلم ، والتعليق « الثقافى » عليها . إنه تطبيق ميدانى ، عبر سنوات عديدة ، وفى مواضع مختلفة ، لمفهوم العلم كثقافة وكأى « صندوق دنيا » ، كان من الممكن أن أدعو القارئ للتعرف على ما فيه قائلاً : إنفرج يا سلام !!! وإن كنت أعتذر مقدماً ، عما يحتويه من « منوعات ثقيلة » . رغم هذا العنوان « الخفيف » .

مصادر

للإستزادة والمتابعة

دعوتى أصيح التحيت ، التى قدمت بها مصادر الجزء الأول من السلسلة ، بنصها لأقدم مصادر هذا الكتاب . فعندما يكون الحديث عن العلم باعتبار ثقافة المستقبل ، لا يكتفى ذكر بعض المصادر التى عاد إليها المؤلف ، أو حتى ما يراه من مصادر ليستزيد القارئ من المادة المعرفية الخاصة بالأجزاء التى تشد انتباهه . إن المصادر فى هذه الحالة يجب أن تحمل دعوة إلى ، وتحريضاً على المتابعة ، ذلك لأن الحوار حول العلم كثقافة للمستقبل سيظل مفتوحاً إلى أن يراث الله الأرض وما عليها !!!

- ١ - العلم كثقافة
- ٢ - العلم والمستقبل
- ٣ - العلم والبيئة
- ٤ - الدين والعلم
- ٥ - صندوق الدنيا

١- العلم كثقافة

● أود تحت هذا العنوان أن أورد بعض المصادر العامة ، التي تخدم العديد من فصول الكتاب . والسبب بسيط ، « فالعلم كثقافة » مفهوم يشيع في الكتاب الخالي والسلسلة كلها ، وهو بذلك يتجاوز كونه عنواناً لفصل أو مقال . ومن حق المجلة ، التي أوجت لى باقتباس هذا العنوان أن أورد بياناتها كأول المصادر ، رغم أنني لم أر إلا عددها التجربة الصادر عام ١٩٨٧ .

الاسم : Science as Culture

المحرر : Robert M. Young

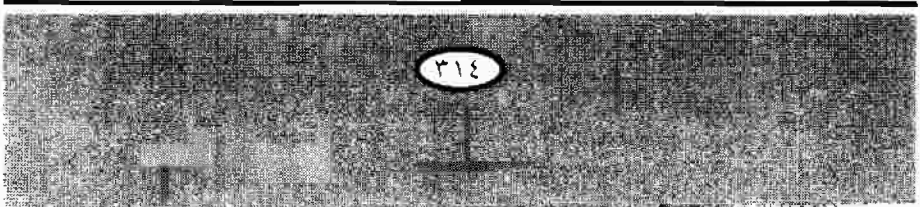
الناشر : Free Association Books, London

ومن طرائف « الايديولوجيا » أن هذه المجلة كان من الممكن أن توصف بمقاييس ما قبل الإنهيار السوفييتى اليسارية ، أما اليوم فلعلها تعد عن الكثيرين يمينية . . . وفي كل الأحوال ، يعيننا هنا الهدف الظاهر : إعتبار العلم كثقافة . . . بل وثقافة المستقبل . وهي ثقافة تتجاوز التصنيف ، لأنها كوكبية !!!

● وإذا كانت المصادر العامة تكتسب أهميتها من إتساع مجالها ودرجة

إنتشارها، فمن المصادر التي تتسم بالتعامل مع العلم كثقافة بموسوعية وإنتشار في الوطن العربي سلسلة « عالم المعرفة » ، التي تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت . إن من بين عناوينها ما يعطى مساحة كافية لتعريف العلم والمنهج العلمي ، وغير ذلك من الموضوعات التي طرقت مراراً وتكراراً بصورة لا أستطيع أن أقدم أفضل منها . ولا يقتصر التعرض لهذه الموضوعات على السلسلة المذكورة ، لكن سهولة الإطلاع عليها تغريني بالتركيز على إستعراض « نخبة » مما قدمته من عناوين ، تقدم في مجملها « فكاً لحزمة » المفهوم الخاص بالعلم كثقافة . ومع الإعتذار لقواعد كتابة المراجع ، سأذكر هذه النخبة تبعاً لترتيب صدورها في السلسلة ؛ منذ عددها الأول (يناير ٧٨) :

- ٣ - د . فؤاد زكريا : التفكير العلمي ، ٥ - د . د . زهير الكومي : العلم ومشكلات الإنسان المعاصر ، ١٣ - د . أنور عبد العليم : الملاحظة وعلوم البحار عند العرب ، ١٥ - د . عبد المحسن صالح : الإنسان الحائر بين العلم والخرافة ، ١٦ - د . محمود عبد الفضيل : النفط والمشكلات المعاصرة للتنمية العربية ، ١٧ - رؤوف وصفي وزهير الكومي : الكون والثقوب السوداء ، ٢١ - د . محمد الفرا : مشكلة إنتاج الغذاء في الوطن العربي ، ٢٢ - رشيد الحمد ومحمد صباريني : البيئة ومشكلاتها ، ٢٤ - د . حسن عيسى : الإبداع في الفن والعلم ، ٣٢ - د . عبد القادر يوسف ود . رجاء الدريني (ترجمة) : تكنولوجيا السلوك الإنساني ، ٣٣ - د . محمد فتحى عوض الله : الانسان والثروات المعدنية ، ٣٨ - د . سعود عباس : تكنولوجيا الطاقة البديلة ، ٣٩ - د . موفق شخاشيرو (ترجمة) : ارتفاع



الإنسان ، ٤٤ - د . عبد الباسط عبد المعطى : اتجاهات نظرية في علم
 الاجتماع ، ٤٧ - سليم الصويصى (ترجمة) : فكرة القانون ، ٤٨ - د .
 عبد المحسن صالح : التنبؤ العلمى ومستقبل الإنسان ، ٥٠ - د . محمد
 عبد السلام : التكنولوجيا الحديثة والتنمية الزراعية ، ٥٣ - د . محمد
 عصفور (ترجمة) : البدائية ، ٥٥ - شوقى جلال (ترجمة) : العالم بعد
 مائتى عام ، ٦٣ - د . عبد الهادى النجار : الإسلام والاقتصاد ، ٦٤ -
 أحمد عبد الواحد (ترجمة) : صناعة الجوع ، ٦٧ - زهير الكرمى (ترجمة) :
 بنو الإنسان ، ٦٩ - د . عبد الله العمر : ظاهرة العلم الحديث ، ٧٠ - د .
 على حجاج ود . عطية هنا (ترجمة) : نظريات التعلم / القسم الأول ،
 ٧٣ - د . محمد مسعود : التخطيط للتقدم الإقتصادى والاجتماعى ، ٨٢ -
 شوقى جلال وصدقى الخطاب (ترجمة) : الإنسان وعلم النفس ، ٨٣ -
 د . سعيد الحفار : البيولوجيا ومصير الإنسان ، ٨٦ - د . عبد الستار
 إبراهيم : الإنسان وعلم النفس ، ٩٢ - د . لطفى فطيم (ترجمة) : عقول
 المستقبل ، ٩٤ - د . مصطفى المصمودى : النظام الإعلامى الجديد ، ٩٥ -
 د . أنور عبد الملك : تغيير العالم ، ٩٨ - د . حسين فهيم : قصة
 الأنثروبولوجيا ، ١٠٠ - د . محمد الربيعى : الوراثة والإنسان ، ١٠٦ -
 عبد السلام رضوان (ترجمة) : المتلاعبون بالعقول ، ١١٢ - شعبة الترجمة
 باليونسكو (ترجمة) : العلم والمشتغلون بالبحث العلمى فى المجتمع
 الحديث ، ١١٣ - د . سعيد إسماعيل : الفكر التربوى العربى الحديث ،
 ١١٤ - د . فاطمة المما (ترجمة) : الرياضيات فى حياتنا ، ١٢١ - د .
 رياض العلمى : الدواء من فجر التاريخ إلى اليوم ، ١٢٣ - د . هادى

الهيئة : ثقافة الأطفال ، ١٢٥ - د . أحمد مستجير (ترجمة) : طبيعة الحياة ، ١٣٠ - د . مصطفى فهمي و د . مختار الطواهرى (ترجمة) : التنبؤ الوراثى ، ١٣١ - د . أحمد سعيدان : مقدمة لتاريخ الفكر العلمى فى الإسلام ، ١٣٤ - د . كمال خلاعلى (ترجمة) : العلم فى منظوره الجديد ، ١٤٢ - محمد عارف وعلى حجاج (ترجمة) : مستقبلنا المشترك ، ١٤٧ - د . فؤاد مرسى : الرأسمالية تجدد نفسها ، ١٤٨ - د . مصطفى فهمي (ترجمة) : علم الأحياء والايديولوجيا والطبيعة البشرية ، ١٥٠ - عبد السلام رضوان (ترجمة) : حاجات الإنسان الأساسية فى الوطن العربى ، ١٥٢ - د . أحمد مدحت سلام : التلوث مشكلة العصر ، ١٥٩ - فؤاد عبد العزيز وشوقى جلال (ترجمة) : فكرة الزمان عبر التاريخ ، ٦٨ - شوقى جلال (ترجمة) : بنية الثورات العلمية [ومعلن فى الكتاب الأخير ، الذى رجعنا إلى قائمته لإختيار هذه النخبة عن الكتاب القادم ، وهو من ترجمة د . محمد الأرنؤوط عن « تاريخ الكتاب »] . قرابة خمسين عنواناً قابلة للزيادة ، لا أظن أن مكتبة أى مثقف عربى تخلو من بعضها ، ولذلك أفردت لها هذه المساحة الكبيرة « كمصادر للاستزادة والمتابعة » ، تتخطى بكثير الأسلوب التقليدى فى ذكر بعض المراجع المحددة المستخدمة فى الكتاب .

● من المصادر اهامة أيضاً ، سلسلة الألف كتاب (الثانى) ، التى تصدر عن انبئة العامة للكتاب (وبودى أن أذكر سلسلة الألف كتاب الأولى ، لولا صعوبة الحصول عليها نسبياً) . ويمكن أن نستعرض « نخبة » أخرى من عناوينها ذات العلاقة ، مرتبة تبعاً لصدورها ، ومستخلصة بنفس الطريقة

من القائمة المنشورة في آخر إصداراتها وقت الإنتهاء من الكتاب الحالي :

- ٢- ي . رادونسكايا : الالكترونيات والحياة الحديثة ، ٦- ر . فوربس :
تاريخ العلم والتكنولوجيا (ج ٢) ، ١٨ - جون لويس : الانسان ذلك
الكائن الفريد ، ٢٧ - فيرنر هيزنبرج : الجزء والكل ، ٣٢ - د . فاضل
الطائر : أعلام العرب في الكيمياء ، ٣٦ - جوكوب برونوفسكى : التطور
الحضارى للإنسان ، ٥٣ - جوهان لارشنر : الحياة فى الكون ، ٥٤ - طائفة
من العلماء الامريكيين : حرب الفضاء ، ٥٦ - د . مصطفى عنانى :
الميكرو كمبيوتر ، ٦٩ - ر . سمبسون و ن . اندرسون : العلم والطلاب
والمدارس ، ٧٢ - فريد هيس : تبسيط الكيمياء ، ٧٦ - فريد هويل
وشندراماسيخ : البذور الكونية ، ٧٨ - روى روبرتسون : الهيروين
والإيدز ، ٨٢ - د . محمود طه : الكمبيوتر فى مجالات الحياة ، ٨٦ -
وليام بينز : الهندسة الوراثية ، ٨٨ - أحمد الشنوانى : كتب غيرت
الفكر الإنسانى ، ٩٤ - جوزيف جاموف : بداية بلا نهاية ، ٩٦ إلى ٩٨ -
جاليليو جاليليه : حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ، ١٠٣ - د .
فويس و . أ . دكسترهوز : العلم والتكنولوجيا ، ١٠٩ بول هاريسون :
العالم الثالث غداً .

وكما نرى ، فالقائمة غنية وقابلة للزيادة مثل السابقة ، مما يجعلنا نتساءل
عن مدى الإستفادة من توفر هذه المصادر زهيدة الثمن .

● ومع تقديرى لجهود تبذل لإصدار سلاسل أخرى لتبسيط العلوم ، وتوضيح

ارتباط العلم بالحياة ، عن الهيئة العامة للكتاب وأكاديمية البحث العلمى ، وهى الجهود التى أرجو لها المزيد من التوفيق « نوعاً وكماً » ، أود أن أشير إلى مطبوعات « المجمع المصرى للثقافة العلمية » . إن هذا المجمع ، الذى تأسس عام ١٩٣٠ ، أصدر عشرات الكتب التى تحتوى على ما قدم فى موسمه العلمية من محاضرات قيمة (قرابة ٦٠٠ محاضرة) ، ويحزننى إنحسارها فى دائرة ضيقة بهذا الشكل ، رغم أنها خلاصة فكر وتجربة المثات من رواد العلم والثقافة العلمية فى مصر . وأضعف الإيمان ، أن أذكر هنا عنوان المجمع لمن يريد الانضمام إليه أو الاستفادة بمطبوعاته ، وهو : عمارة تاجر ، (١) شارع أوزوريس بجاردن سيتى .

● وإذا كنا قد ذكرنا الكثير من السلاسل العربية ، بما تحويه قوائمها من كتب مؤلفة ومترجمة ، فلا بد وأن نعرض على أمثلة من إصدارات الدول المتقدمة علمياً . إن دور النشر التى تشتهر بإصدار سلاسل ذات منطلق موسوعى فى مختلف فروع المعرفة ، مثل « البنجوين » التى أدعو دائماً إلى أن يكون لدينا دار نشر لها نفس طابعها ، كثيرة ومنتشرة ، لكننى سأقدم هنا مثالين أقل انتشاراً ، لكنهما يطبقان مفهوم « العلم كثقافة » الذى أُلح عليه بحرفية ونجاح :

- أولهما محررها روبرت يونج (نفس محرر المجلة التى بدأت بها المصادر) وهى مجموعة من الكتب التى أصدرتها عن دار نشر Pan وقدمت مادتها القناة الرابعة فى بريطانيا ، تحت عنوان :

Crucible : Science in Society

ومنها العناوين الأربعة التالية :

- (1) Mike Hales (1982) Science or Society ? The Politics of the work of Scientists.
- (2) Jill Rakusin and Nick Davidson (1982) Out of our Haands : What Technology Does to Pregnancy.
- (3) Joel Kovel (1983) Against the State of nuclear Terror.
- (4) Edward Yoxen (1983) The Gene Business : Who should control Biotechnology ?

والأخير ترجمه د . أحمد مستجير ، تحت عنوان « صناعة الحياة » وصدر عن دار غريب عام ١٩٨٥ .

- السلسلة الثانية ذات طابع خاص جداً ، فهي تصدر عن نادٍ ثقافي في نيويورك ، إسمه نادى الحقيقة أو الواقع Reality Club (ما أحوجنا إلى مثله في عالمنا العربى !!!) . يأتى هذا النادى ، الذى أسسه جون بروكمان عام ١٩٨١ ، بأكبر العلماء والخبراء فى كل مجالات النشاط البشرى ، العلمى والأدبى والتقنى والفنى . . . إلخ ، بل والسوى والشاذ ، ليعرضوا آخر ما يلمون به فى مجالاتهم ، ويطرحوا الأسئلة التى يسألونها لأنفسهم عن المستقبل ثم تعاد صياغة العروض فى ظل الإستفادة من الحوار ، وتصدر تبعاً . عندى من مطبوعات هذا النادى ثلاثة مجلدات ، طبعتها دار نشر Printice Hall Press هي :

- (1) Speculations (1988)

(2) Doing Science (1991)

(3) ways of Knowing (1991)

● ولا يمكن ألا نذكر أيضا بعض المراجع العربية والأجنبية ، التي عنت بالعلم فلسفة وتاريخاً وعلاقته بالمجتمع ، « كأمثلة » للمصادر اللازمة للإستزادة وتعميق المفاهيم .

● من الكتب الأجنبية ، أقدم الأمثلة القليلة التالية ، التي يغلب على إختيارها ريادة أغلب مؤلفيها في هذه المجالات :

- C. Boyle et al . (1984) People, Science and Technology, Wheat sheaf Books.
- A. Chalmers (1985) What is this thing called Science ?, Open University Press.
- I. Frolov (1986) Man - Science - Humanism: A New Synthesis, Progress Publishers.
- J. Haldane (1932) The Inequality of Man, Penguin Books.
- A. Hall and M. Hall (1964) A Brief History of Science, The New American Library.
- J. Huxly (1923) Essays of a Biologist, Penguin Books.
- V. Ilyin and A. kalinkin (1988) The Nature of Science, Progress Publishers.

- J. Ladriere (1977) The Challenge presented to Culture by Science and Technology. UNESCO.
- P. Medawar (1984) The Limits of Science. Oxford University Press.
- K. Pearson (1911) The Grammar of Science (Part I). Adam and Charles Black.
- M. Perutz (1991) Is Science Necessary?. Oxford University Press
- D. Price (1963) Little Science. Big Science. Columbia University Press.
- B. Russel (1985) The Impact of Science on Society . Unwin Paperbacks (First published in 1952)
- C. Waddington (1948) The Scientific Attitude, Pelican Books.
- A. Whitehead (1958) Science and the Modern World, The New American Library (First published in 1925)
- J. Wolfen den et al . (1963) Thelanguages of Science. Faucett Publications.
- J. Ziman (1976) The Force of Knowledge, Cambridge University Press.

● ومن نماذج الأعمال المؤلفة والمترجمة ، أشير إلى ما يلي :

- أبو شادى الروبى (١٩٨٩) فلسفة العلم قديماً وحديثاً .

(١٩٩٢) من منطق الفلاسفة إلى منطق الأطباء .

وهما محاضرتان ألقيتا في افتتاح الموسم الثقافى لجمعية تاريخ وفلسفة العلوم
(أين هى ؟ !!!) .

- إتحاد مجالس البحث العلمى العربىة (١٩٨١) العلم : نظرياته
وتطبيقاته . وقائع حلقة دراسية عقدت في بغداد عام ١٩٨٠ ، ترجمة
وإعداد خليل الحماش .

- ج . بزناى (١٩٤٩) رسالة العلم الإجتماعية (ترجمة : إبراهيم حلمى
عليه ، مراجعة محمود على فضلى) - دار الفكر العربى .

(١٩٨٢) موجز لكتاب العلم فى التاريخ الصادر عام

١٩٥٧ ، إعداد سعد الفيشاوى .

- سالم يفوت (١٩٨٦) فلسفة العلم المعاصرة - دار الطليعة .

- صلاح قنصوة (١٩٨٧) فى فلسفة العلوم الإجتماعية - مكتبة الأنجلو .

- غاستون باشلار (١٩٨٣) الفكر العلمى الجديد - ترجمة عادل العوا
ومراجعة عبد الله عبد الدائم .

- ك . دار لنجتون (١٩٧٥) صراع العلم والمجتمع - الأربعة فصول الأولى

من الكتاب المنشور تحت هذا الاسم عام ١٩٤٨ ، ترجمة أحمد مستجير /

محاضرة القيت بجامعة القاهرة .

- ماهر عبد القادر (١٩٨٤) فلسفة العلوم - ثلاثة أجزاء - دار النهضة العربية .

(١٩٨٥) فلسفة التحليل المعاصر - دار النهضة العربية

- هنري بوانكاري (١٩٨٢) قيمة العلم - ترجمة الميلودى شغموم - دار التنوير .

- يمنى الخولى (١٩٨٧) العلم والإغتراب والحرية - الهيئة العامة للكتاب .

(١٩٩٠) الحرية الإنسانية والعلم - دار الثقافة الجديدة .

● وإذا ما إنتقلنا من الكتب إلى المجلات ، نجد من المجلات العربية ما يلي :

- العلوم ، التى تقدم خدمة متميزة بترجمة أشهر المجلات الأمريكية (سيانتييفيك أمريكان، وتصدر عن مؤسسة الكويت للتقدم العلمى).

- العلم (التى تصدر عن أكاديمية البحث العلمى فى مصر) .

- العلم والتكنولوجيا (معهد الإنماء العربى ببلبنان) .

- العلم والحياة ، ديوجيه ، الإنسان والمحيط الحيوى ، المجلة الدولية للعلوم الإجتماعية (اليونسكو) .

- آفاق علمية (مؤسسة شومان بالأردن) .

- المجلة العربية للعلوم (جامعة الدول العربية) .

- العربى (الشهرية الكويتية واسعة الانتشار التى تهتم بكثير من المواد العلمية ، ومعالجتها ثقافياً) .

- الثقافة العالمية (وتعنى بتقديم ترجمات لكثير من المواد العلمية والعامة من عدد كبير من المجلات ، وتصدر عن المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت) .

ولا بد أن غيرها كثير ، لكن هذا هو « جهد المقل » فى المتابعة .

● ومن المجلات الأجنبية ، يمكن أن نذكر :

Scientific American

Disc over

New Scientist

Popular Science Omni

Omni

وهناك العديد من المجلات « العلمية العامة » الأخرى ، التى تصدر بالإنجليزية أو غيرها ، من أشهرها « العلم والحياة » الفرنسية ، ولكن مرة أخرى هذا هو جهد المقل !!! والمهم فى العرض السابق للمصادر كلها ، إثبات أن المتاح ليس قليلاً لمن يطلبه .

٢ - العلم والمستقبل العربى

● تهتم الكثير من الجهات قومياً وقطرياً بهذا الموضوع ، أذكر منها مركز دراسات الوحدة العربية ، ومنتدى الفكر العربى ، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . وحرصاً على تقديم المصادر الأكثر إتاحة ، سأستعرض بعض إصدارات مركز دراسات الوحدة العربية ، الذى أنتهز الفرصة لأعبر عن أسفى لتصفية مقره بالقاهرة ، وإن كنت أرجو ألا يؤثر ذلك على توفر مطبوعاته بنفس الإنتظام . من بين الأعمال التى أصدرها المركز فى هذا الموضوع الهام ، الذى يمثل كما ذكرنا طريق العودة إلى المستقبل ، ما يلى :

حياة التكنولوجيا المستوردة من أجل التنمية الصناعية (ندوة) - البعد التكنولوجى للوحدة العربية (أنطوان زحلان) - المشروعات العربية المشتركة (سميح بركاوى) - العرب والعلم والتقانة (أنطون زحمان) - تهيئة الإنسان العربى للعطاء العلمى (ندوة) - استراتيجية تطوير العلوم والتقانة فى الوطن العربى (التقرير العام والاستراتيجيات الفرعية) - الثقافة فى الوطن العربى (يوسف حلباوى) .

هذا بالإضافة إلى إصدارات عديدة هامة فى مجالات التعريب والتعليم ، وكذلك الإقتصاد والتنمية والبيئة . ومختلف العلوم الإنسانية ، كل ذلك برؤية قومية متطورة .

● وبالنسبة للواقع المصرى ، أكتفى بالإشارة إلى أهمية دراسات المجالس القومية المتخصصة ومجلس الشورى ، وكذلك ما يصدره المجلس الأعلى للجامعات ومركزى البحوث التربوية والتعليم العالى والجامعى بالنسبة للتعليم ، وما تصدره الأكاديمية من كتب خاصة بنقل التكنولوجيا والتنمية التكنولوجية ، من إعداد رئيسها د . على حبش .

٣ - العلم والبيئة

● إنعكس الاهتمام المتزايد بالبيئة على الإصدارات المتعلقة بالموضوع بشكل ملفت ، ولو راجعنا المصادر « المذكورة سابقاً » لوجدنا بعضها يتعرض لهذا الموضوع . ولكن من الأمثلة المتميزة ، التى أود أن أبدأ بها إستعراض بعض ما توفرنى من مصادر ، الإحساس بالمسئولية الذى شعر به صديقى الكبير د . أحمد مستجير ، الذى يعيش فعلاً « العلم كثقافة » ، مما جعله يقدم ترجمة متميزة لخمسة عناوين هامة ، أولها يمثل عند الكثيرين البداية الحقيقية للإهتمام بالبعد البيئى فى النشاط البشرى ، وأعنى به « الربيع الصامت » ، الذى أصدر له طبعة جديدة قريباً . ومكتبة الدكتور مستجير البيئية الآن بها العناوين التالية :

- الربيع الصامت (راشيل كارسون) ١٩٩٠ - مركز النشر بجامعة القاهرة .
- البيئة وقضاياها (دينس أوين) ١٩٩١ - مركز النشر بجامعة القاهرة .
- ثقب الأوزون (جون جريبين) ١٩٩١ - مركز النشر بجامعة القاهرة .
- الانقراض الكبير (مايكل ألبى وجيمس لافلوك) ١٩٩٢ - الهيئة العامة للكتاب .

● من الجهود المشكورة أيضاً ، ما تقوم به الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية من إصدار لترجمات لعديد من وثائق معهد مراقبة البيئة العالمية (وورلد واتش) ، حيث صدر عن الدار الدولية للنشر العناوين الآتية :

- حماية الحياة على الأرض (تأليف سنشاشى ، ترجمة أنور عبد الواحد) .

- ارتفاع درجة حرارة الأرض (تأليف كريستوفر فرلافين ، ترجمة سيد هدارة) .

- الفقر والبيئة (تأليف آلن درننج ، ترجمة محمد صابر) .

- مياه الزراعة (تأليف ساندرا بوستيل ، ترجمة محمد صابر) .

- تخليص الهواء من الملوثات (تأليف هيلارى فرنسى ، ترجمة أنور عبد الواحد) .

- ما بعد عصر النفط (تأليف كريستوفر فلافين ونيكولاس لينسن ، ترجمة محمد الحديدى ، مراجعة شويكار زكى) .

● كما قام مركز دراسات الوحدة العربية مؤخراً (١٩٩٢) بإصدار ترجمة عربية لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة تحت عنوان : إنقاذ كوكبنا - التحديات والآمال : حالة البيئة في العام ١٩٧٢-١٩٩٢ .

● وتعددت المؤلفات التى تعنى بالموضوع أيضاً ، أذكر منها على سبيل المثال كتاب : التلوث ثمن المدنية ، تأليف د . على زين العابدين و د . محمد بن عبد المرضى (المكتبة الأكاديمية - ١٩٩٢) .

● ولأن عنوان الفصل الخاص بالعلم والبيئة يحمل كلمة GAIA ، التى تدل على أسنا الأرض ، وتتعامل مع منظومتها كما لو كانت حية ، أذكر هنا كتاب لافلوك (صاحب نظرية جايا الحية) وبعض المعالجات الأحدث :

- C. Barlow, ed. (1991) From Gaia to Selfish Genes, The MIT Press

- J. Lovelock (1979) Gaia : A New Look at Life on Earth, Oxford University Press.

- A. Miller (1991) GAIA Connections, Bowman & Littlefield.

● ومن بين عشرات الكتب ، التي تعالج الأوضاع البيئية ، أشير إلى المصادر الآتية ، التي يحمل كل منها مذاقاً خاصاً :

- A. Asimov (1979) A Choice of Catastrophes: The disasters that threaten our world, Fawcett Columbine .

- L. Datto (1986) Planet Earth in Jeopardy : Environmental consequences of nuclear war , John Wiley & Sons.

- J. Mac Neil et al. (1991) Beyond Interdependence: The meshing of the world's economy and the earth's ecology , Oxford University Press.

- D. Suzuki & C. Knudston (1988) Genethics, AP.

- Y. Velikhov, ed. (1985) The Night After ...: Climatic and biological consequences of a nuclear war, Mir Publisher.

- D. Wilson ed. (1984) The Environmental Crisis: A handbook for all friends of the earth. Heineman Educational Books.

● أما بالنسبة للمجلات التي معنى بالبيئة والثقافة البيئية ، فقد صدرت مجلدة جيدة عن جهاز لشئون البيئة بالتعاون مع الأهرام ، لكننى أظنها قد تعثرت للأسف . وعموما فهناك صفحة للمدينة بالجريدة ، كما أن إنحاء كلية الإعلام إلى الإهتمام بالإعلام البيئى فى دراساتها يعد أمرا محموداً .

٤ - الدين والعلم

● إتجاه التواصل بين الدين والعلم في ثقافتنا قديم قدم الرسالة ، وفي شكله الحديث وجد إجتهدات كثيرة على أيدي رواد مثل الدكتور أحمد زكي والدكتور جمال الفندي والدكتور عبد الرزاق نوفل وغيرهم . أما الإتجاه المؤسساتي الذي ظهر أخيراً تحت شعار أسلمة المعرفة وأسلمة العلوم ، والتوسع في الجهود المخصصة للإعجاز العلمي في القرآن ، فرغم توفر مصادره إلا أنني أود أن أشير إلى نماذج منها لمن يريد التعرف عن قرب على مضامينها :

- بالنسبة لإسلامية المعرفة ، فهناك سلسلة تصدر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي (بواشنطن) ، يحمل أول كتبها عنوان :

إسلامية المعرفة : المبادئ العامة - خطة العمل - الإنجازات (١٩٨٦) ، وهو مناسب لبداية التعرف بالمجال ، وتكوين رأى حياله .

- ومن الإجتهدات التي أتابعها فيما يخص أسلمة العلوم ما يكتبه بانتظام الصديق الدكتور أحمد فؤاد باشا في مجلة الأزهر ، والذي أتمنى أن يبذل جهداً أكبر في تقديم إجتهداته الطيبة عن تاريخ العلم عند العرب والمسلمين .

- كما أن من المجالات التي تعنى بهذا الإتجاه ، مجلة المسلم المعاصر ، التي

تصدر عن مؤسسة المسلم المعاصر والمعهد العالي للفكر الإسلامى ،
السابق ذكره .

- وكتب الإعجاز العلمى فى القرآن كثيرة ومتفاوتة المستوى ، أختار منها ،
كنموذج حديث ، كتاب الدكتور يحيى الحجرى ، الصادر عن المختار
الإسلامى ، تحت عنوان : آيات قرآنية فى مشكاة العلم (١٩٩١) .

● وإن كنت قد دعوت إلى الإهتمام بصورة أكبر بتاريخ العلم عند العرب
والمسلمين ، لما لهذا الماضى الطيب من بعد مستقبل مؤكد ، فلا بد وأن
يحيى جهود من يعكفون على ذلك ، وأشير هنا إلى سلسلة دراسات فى
التراث الإسلامى للدكتور ماهر عبد القادر ، التى صدرت عن دار النهضة
العربية ، ومشروع الأستاذ الشاب الدكتور يوسف زيدان لتحقيق أعمال ابن
النفيس . كما أشير أيضاً إلى كتابى د . أحمد فؤاد باشا ، الصادرين عام
١٩٨٤ عن فلسفة العلوم بنظرة إسلامية ، والتراث العلمى للحضارة
الإسلامية ، ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة . وللاستاذ عمر فروخ دراسة
تحت عنوان :

« بحوث ومقارنات فى تاريخ العلم وتاريخ الفلسفة فى الإسلام » ،
صدرت عن دار الطليعة عام ١٩٨٦ . وأخيراً ، أشير إلى رسالة الدكتور
جلال محمد عبد الحميد موسى ، التى طبعت بواسطة دار الكتاب اللبنانى
عام ١٩٨٢ تحت عنوان : منهج البحث العلمى عند العرب فى مجال العلوم
الطبيعية والكونية .

● وأود أن أفرد هذه الفقرة للمعالجة الهادئة والواقعة ، التي تعكس طبيعة صاحبها الصديق الدكتور أحمد صدقي الدجاني ، للإسلام والمستقبل .
لقد قدم « أبو الطيب » ضمن إجهاداته العديدة كتابين جديرين بالحب والاهتمام من كل منشغل بهذه القضية ، هما : « وحدة التنوع وحضارة عربية إسلامية في عالم مترابط » ، الصادر عن دار المستقبل العربي عام ١٩٩٠ ، و « عن المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة » ، الصادر عن دار البشير عام ١٩٩٢ . أود أن نتأمل كثيراً هذه الكلمات الثلاث : رؤية - مؤمنة - مسلمة ، فهي تدخل إلى العقل والقلب معا بصورة تفوق الكثير من الشعارات ، وتأسرنى ببساطتها وصدقها .

● وكأمثلة للحوار الحديث حول الدين والعلم في الغرب ، أقدم النماذج الآتية :

- J. Brooke (1991) Science and Religion: Some historical perspectives, Cambridge University Press.
- E. Copra (1982) The Taming of Faith: Science, Society and the rising culture, Bantam Books.
- P. Davies (1983) God and the New Physics, Penguin Books.
- R. Sheldrake (1991) The E. birth of Nature, The greening of science and God, Bantam Books.

٥ - صندوق الدنيا

● بالنسبة للإجتهاادات ، التي تعتمد على إستخدام معلومة علمية لتحليل علاقة مجتمعية ، لا أجد بجانب ما ذكر في المقالات نفسها خيراً من اللجوء إلى الموسوعات ، لتدقيق المعلومة ، والإنطلاق منها إلى النمذجة والتحليل ، مع تلافى الإختزالية ، وكل الإنتقادات التي توجه إلى هذا المدخل ، بانطبع . . . فالمسألة لا تتعدى محاولة الإثراء الثقافي لحوار دائر حول قضية ما بالرؤية العلمية . والموسوعات تتوفر في المكتبات العامة والمراكز الثقافية ، ومنها العام الموسع مثل : Lexicon , Americana , Britanica أو ذات المجلد الواحد مثل : Cambridge . أما الموسوعات العلمية ، فمنها أيضاً الموسع مثل موسوعة Mc Graw Hill للعلم والتكنولوجيا (١٦ جزءاً) ، أو المختصر في مجلد واحد أو عدد قليل من المجلدات ، مثل موسوعة ماكجروميل المختصرة للعلم والتكنولوجيا ، وموسوعة Van Nostrand ، وموسوعة Oxford .

● أما المتابعات ، فتنوع مصادرها تبعاً للموضوع :

- فالنسبة لجوائز نوبل ، وقد كانت موضع الإجتهد والمتابعة ، يمكن الرجوع إلى الأعداد السنوية المتتالية لكتاب World Almanac ، وكذلك هنالك كتاب هام يذكرها ضمن معلومات عديدة عن تتابع المعارف العلمية الهامة ، بياناته كما يلي :



A. Hellemans & B. Bunch (1988) The Timetables of Science, Sidgwick & Jackson .

- وبالنسبة لإشكاليات التكاثر البشرى وقصة البذور أكتفى بمراجعين :
مجلة حوار التنمية Development Dialogue ، التى تصدرها مؤسسة
داج همر شلد (عدد ١ - ٢ ، ١٩٨٨) وكتاب ثورة التكاثر : The Re-
production Revolution ، من تأليف بيتر سنجر ودين ويلز ، والصادر
عام ١٩٨٤ عن مطبعة جامعة اكسفورد .

- وهجرة الكفاءات ، وما نجم عنه من خسارة ، أذكر الندوة التى نشر
وقائعها مركز دراسات الوحدة العربية ، تحت عنوان : هجرة الكفاءات
العربية ، وكذلك كتاب « نزيف الأدمغة » لندكتور عطفو ياسين ،
الصادر عام ١٩٨٤ عن دار الأندلس . وأخيراً ، كتاب « النظام
الاقتصادى العالمى » الجديد ، تأليف فالنتين شتشتينين وترجمة د .
شهرت العام ، وقد صدر عن دار الثقافة الجديدة عام ١٩٨٨ .